لواحق المقتطف الشهرية

مايو ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته
عرض وتحليل

تأليف
هنري سروريا

ترجمة
سليم سعده

«كل شيء في هذا المكان يفوح منه»
«عرف الامن ونكهة النظام والسرور»

«جيته»

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

١ — عبقرية

لا شك في أن الانسانية فقيرة بعباقرة العقول ، والطبيعة شحيحة بالعباقرة الأفذاذ ، ولذلك فانا نراهم يجتازون العالم في مختلف عصوره اجتياز الظواهر الغريبة النادرة . انهم يحلمون وهم في الغالب منبوذون لا يُفهمون .

وسبينوزا هو أحد هؤلاء الرجال الذين قلما يجود الدهر بمثلهم ، فنفوسهم الأبية النبيلة تنأى بهم عن عامة المبتذلين الذين يبذرون الشر حولهم بدافع من نفوسهم وهم لا يعقلون . بيد أن الزمن — وهو الحكم النزيه العادل — كفيل بأن ينتقم لهم ويعقد عليهم لواء مجده فيظهرون .

تلك كانت حال سبينوزا الذي أبت حكمة بني جنسه أن تفهمه فأهملوه ، وعزّ على فطنة ذويه وآل عشيرته أن تعنى به فأقصَوْه عنهم ونبذوه .

إن سبينوزا — بصفة خاصة — رائد جيله . فهل كان هذا الرجل عبقريًّا ، وهل كانت عبقريته فذة ؟ . . . إن « كانت » في كتابه « نقد الحكم » لا ينسب العبقرية إلاّ للشعراء والفنانين . ولكن يلوح أن تعبيره هذا لا يقوم على أساس متين . فكل « تخلّق » ذاتي ، أيًّا كان المجال الذي يتجلى فيه ، مرتبط — في الواقع — بالعبقرية . وإننا لا نقصد بكلمة « تخلّق » ما يشمل الوجود الذاتي والرؤيا العميقة والحدس والنظريات الجديدة التي لا يمكن — فيما بعد — تطبيقها على الحقيقة . يقينًا أن العبقرية لا تستوي عند من يقصر عمله ونتاجه على تنظيم الوقائع بطريقة واضحة منطقية ، والتعليق عليها بحكمة وهدوء دون أن ينفث فيها قليلاً من روحه أو يضيف إليها ملاحظة شخصية من نوع جديد ، ويقذف بها في اتجاه جديد أو يبذل في سبيلها مجهوداً شخصيًّا كبيراً . فكل تلك الجهود تتطلب شيئاً من الثقافة العالية وحس الاستعداد . ويظهر أن « كانت » محق في نظريته من تلك الناحية .

بيد أن الفيلسوف الذي يخلق يمتاز على الشعراء والفنانين ، إذ أن مخيلته أبعد مدى من خيالهم

وتلك الخيلة لا تقتصر فقط على حصر خطوط الحياة سواء أكانت تلك الخطوط واضحة أم غامضة ، وإنما ترمي أيضاً الى إدراك أعمق أعماق جوهرها . إن مخيلة من يقف جهوده على البحث والتنقيب في هذا الكل أو هذا الكون بطريقة دقيقة عميقة لهي ، بغير شك أو مغالاة ، مخيلة عجيبة . ولقد أورد التلمود ذكر شيء من هذا القبيل . فقد حُكي أن أربعة من الحكماء دخلوا « الحديقة » ليتبحروا في أسرار الخليقة فقد أحدهم بصره وأضاع الثاني رشده وفقد ذاكرته ، ومات الثالث ، ولم ينجح منهم إلاّ الرابع وهو « عقيبا » الرباني لأنه كان أديباً على جانب عظيم من أصالة الرأي وحصافة الفكر . إن الفيلسوف الذي يضم في مخيلته حيزاً في مثل اتساع الكون ، لهو بغير ما ريب عبقري . على انني أرى أنه لا يمكن إدماج عظماء الفنانين وفطاحل الشعراء ضمن فئة العباقرة إلاّ إذا كانت صدورهم مليئة بما يؤهلهم لذلك ، ولا أظنني مخطئاً إذا قلت بأن المؤلفات الخالدة التي خلفها شكسبير ورامبرانت وميشيل أنج وسرفانتس وبيتهوفن وجيته تكشف عن فلسفة مؤثرة عميقة .

ان سبينوزا عبقري ، ليس بصفته فناناً، ولكن باعتباره عالماً بما بعد الطبيعة . إن فيه شاعرية عميقة وحياة داخلية قوية . وتلك الشاعرية وهذه الحياة الداخلية تذكراننا بشخصية قلقة مضطربة كشخصية « هملت » ولكنها تبدو مرحة باسمة مرتاحة وهكذا تطغو شخصية سبينوزا على شخصيته ، لا سيما الجزء الخامس من كتاب « الأخلاق » وهو الجزء الصوفي البحت . وأكثر من ذلك فان المرء ليشعر — إذ يتعمق في دراسة حياة سبينوزا الروحانية الخاصة — بأنه يعيش في عالم من الصفاء لا مدى له ولا نهاية . إن مذهبه فيما بعد الطبيعة ، لا يقتصر على إرضاء الفضول البشري وجلاء أسرار الكون وتهدئة القلق الذي شعر بمثله عبقري مثل « بسكال » حيال عظمة الكون السامية وحقارة الذرات الضئيلة فحسب ، وإنما يتعدى ذلك كله إلى تطهير النفس وإسعادها في هذا العالم . « وليست الغبطة ثمناً للفضيلة ، ولكنها الفضيلة بعينها » .

إن الحب الروحاني الذي أوضحه سبينوزا بأجلى بيان لهو أسمى درجة لكل ما هو طيب انساني . ولقد أدرك تلك الدرجة جميع أولئك الذين وقفوا حياتهم على دراسة الأمور الروحانية البحتة ، بعد تجريدها من جميع العوامل المادية .

فهرس المجلد الثامن بعد المائة

من المقتطف

(ا) وجه

آجنس (قصة) ٢١١

آراء حديثة في نشوء الحضارات ٢٧٣

الأديان البدائية عند الاستراليين ١٢٨

الفريد دي موسيه (غرام بين أديبين) ٤١

الليل نسمته ٢٥٧

الألماس ٢٦٨

الأسماك تجنيه ١١٦

الأمومة نظامها ٢٧٩

الأمية مكافحتها ٥٠

(ب)

البراءة اليابانية ٢٣٢

البن ٣٢

(ت)

التأله ١٦٨

تراث العرب العلمي ١٦٩

التعب ١٧٣

التعليم ومراميه ١٤٥

التغذية في العهد الفرعوني ٨٩

التوازن الدولي ٣١٨

(ج)

الجهل ديمقراطيته ٣١١

(ح) وجه

الحرم الكنسي ٢٨٠

حصن الأخيضر بالعراق وحصن عين التمر ١٥٣

حكمة غوت وعلم بطويه التراب ٨١

حكومة القساوسة ٢٣١

الحق الالهي ٣١٠

الحل: زلاله ١١٣

حوت العنبر ٢٢٥

الحياة: عواطفها ١٠٤

(خ)

خطاب المدح في القرآن الكريم ١٤٩

(د)

الدعاية أسباب نجاحها ٣٦

الدمنكيون ٣٠٠

الدولة الفاطمية: أحسابها ٥٦

دون جوان العرب (عمر بن أبي ربيعة) ١٨٩

ديمقراطية الجهل ٣١١

ديوان التفتيش ٢٠٤

(ذ)

الذرة ميلاد عصرها ٢٤٩

(ر) وجه

الرأي العام الاجتماعي في مصر ٢٢

الرموز العددية وتغييرها في العربية ٢٣٥

(ز)

الزهد ٢٤٣

زلال الحل ١١٣

(س)

السيكومتري ٢٩٠

سلام على الصحراء ١

(ص)

الصيدلة وقدماء المصريين ٢٨١

(ط)

الطاقة الذرية وتسيير السيارات والطائرات ٣٠١

الطغيان: نشأته وصلته بالتجارة ١١٧

الطيور ١٧٨

(ع)

علماء الطبيعة والنبات تراجم مشاهيرهم: ١٣ و٣١٧

علم السياسة طبيعته وأساليبه ٦٦

العلم الألماني أصوله ومراميه ٩

وجه
العلم والفلسفة ١٧٤
علم الحيوان ٢١٠
عمر بن أبي ربيعة ١٨٩
العنبر: حوت ٢٢٥
عواطف الحياة ١٠٤
(ف)
الفاطمية: أصحابها ٥٦
الفاطميون: نسب العبيديين ٢٤٦
الفاطميون ورأيهم في الخلافة ٢٣٥
(ق)
(قصيدة)
الربيع: قصيدة ٢٥٨
شجن: قصيدة ١٠٩
الى الشعراء ٢٨٩
حاسقة ٢٤٤
منية النفس ١٠٣
القانون الدولي أساسه وطبيعته ومستقبله ١٧ و٨٥
القنبلة الذرية: سرها ٢٥٩
القنبلة الذرية: السيطرة عليها ١٧٩
القنبلة الذرية والظواهر الروحية ١٢١
القيصرية في القرون الوسطى ٢٦٢

وجه
(ل)
لواحق المقتطف
فك الأغلال — يناير
الالوهية والفكر — فبراير
ألفريد دي موسيه — مارس
الأزهر بين الماضي والحاضر — ابريل
سبينوزا — مايو
(م)
مجمع اللغة العربية مصطلحاته الحديثة ٢
المدرسة الخاتونية البرانية ٦٠
المستكشفات أحدثها ٢٠٥ و ٢٦٣
المعز لدين الله الفاطمي أسطورة تنصره ١١٠
المقتطف: حكمه ١٢٧
مكتبة المقتطف
اسماعيل ٧٣
أنيسة: او رواية اخوان
العدل ٣٢٣
البديع ٧٣
بعث الشعر الجاهلي ١٣٧
تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع ٢٦٩

وجه
حواء الخالدة ٢٧٠
خادمات المليونير ٧٦
ذكريات ٢٧١
سعد بن أبي وقاص وأبطال القادسية ٧٤
الشعر والشعراء ٣٢٢
الفخري للآداب السلطانية ٧١
فك الأغلال ٢١٩
فن القصص ٧٦
قناة السويس ٧٥
المقامس ٣١٩
نظرات في الحياة والمجتمع ٧٠
الوساطة بين المتنبي وخصومه ٧٢
المنطقة الايونية استكشافها ٣٠٧
(ن)
نظام الأمومة ٢٧٩
النهضة ٨٨
(هـ)
الهدنة الالهية ٢٤٨
الهون ١٣٣
(و)
وعلم آدم الأسماء ٣١٣

« عشمل » قذر جداً ، فعاب عليه ذلك وطلب منه أن يعوّضه عنه ، فأجابه سبينوزا ، بأن الرجل لا يزداد قيمة إذا هو ارتدى « مشملاً جيلاً » وأضاف :

« ليس من الحكمة أن تحاط الأشياء التافهة الزهيدة بحلى ثمينة » . بيد أن سبينوزا لم يكن متعصباً لنظرته فيما يتعلق بالزي الى حد التقشف ، بدليل ما كتبه في أحد خطاباته :

« ليس في إهمال اللباس أو عدم العناية به ما يكسبنا الحكمة لأن المغالاة في التظاهر بعدم العناية بالهندام قد يكون دليلاً على عقلية مبتورة لا يمكن أن تجد فيها الحكمة الصحيحة مكانة خليقة بها ولا يجد العلم فيها إلاّ بلبلة وتشويشاً » .

أما لوكاس فانه يتحدّث عنه بلهجة غير هذه ، فهو يطنب في مدح ما كان عليه أستاذه من النظافة المتناهية وهي من الفضائل التي قلما توجد عند الفيلسوف .

وقبل أن نتعرض الأعمال التي ترتبط بدراساته والسنوات الدقيقة التي أعقبت مقاطعته للدين اليهودي ، يجب علينا أن نقضي بما كانت عليه عقلية الوسط اليهودي الذي حكم أفراده على سبينوزا .

ان الدين اليهودي الذي نعم في إسبانيا بعهد رخاء وسكون إبان الحكم الاسلامي حتى سقوط غرناطة بيد فردينان عام ١٤٩٢ ذاق الأمرّين على أثر إقصاء هذا الحكم عن شبه جزيرة إسبانيا . فقد استبدت محاكم التفتيش باليهود الاسبانيين فاستشهدوا بعد أن طلب منهم أن يختاروا بين اعتناق المسيحية وبين النفي ومصادرة أموالهم . على أن الكنيسة لم تضطهدهم ، والبابوات لم يناصبوهم العداء . ولقد طالما ضجوا بالشكوى من تصرفات محاكم التفتيش الوحشية معهم . وبمجمل القول كان مركز اليهود في ذلك العهد مؤلماً رهيباً فقد طردوا من جنوا وذبحهم الوطنيون على ساحل إفريقية طمعاً في حليهم وأموالهم . ولقد مدّ بعضهم الرحالة كولومبوس بالمال للقيام بمغامرته — إذ انه كان من ملتهم وواحداً منهم — كما أن جماعة منهم رافقوه في سفينته وجازف غيرهم بحياتهم على سفن حقيرة ضئيلة صعدوا على ظهرها في المحيط الاطلنطي وعبروا سواحل فرنسا وانجلترا ويمموا شطر ساحل هولندا حيث قابلهم شعبها القليل العدد بمظاهر الترحاب والعطف . ففي غضون تلك المغامرة المحفوفة بالمخاطر التي تتجلى فيها صورة اليهودي التائه بأجلى معانيها ، هلك منهم عدد كبير إما غرقاً وإما

بالأمراض والوباء . فتلك الرحلة الشاقة المليئة بالمخاوف والمخاطر تفسر لنا موقف اليهود العدائي من سبينوزا . ان الألم يلد الألم كما يلد حالة نفسية خاصة ترمز بالخوف الدائم . وهذا الخوف يزداد إذا انتقل من الفرد الى الجماعة لأن مشاعرهم تكون أكثر يقظة وحساسية وتبادلاً خصوصاً إذا كان أفراد هذه الجماعة يمثلون أقلية ضئيلة . فلو أن الشعب الاسرائيلي كان في ارضه لما كان يرتكب مثل تلك النقيصة مع سبينوزا لأن شريعته في حد ذاتها مرنة نزيهة . وما كان ليرتكبها كما يقول أبراهمس ، لو أن منفه بن اسرائيل القبالي الشهير والرئيس الروحاني لليهود وصديق رامبراندت كان موجوداً إذ ذاك في هولندا ، إلا أنه كان في لندرا منهمكاً في مفاوضة كرومويل واقناعه ليأذن بفتح سواحل انجلترا ويسمح لليهود بالهجرة اليها .

والآن فلننظر كيف أبعد سبينوزا عن الطائفة اليهودية . لقد لجأ اليهود الى أمستردام حوالي سنة ١٥٩٣ . وكان ضمن المهاجرين جد سبينوزا وأبوه اللذان تخلفا قليلاً في مدينة نانت قبل الوصول الى أمستردام . وكانت عشيرة سبينوزا من التجار وجده باروخ ابراهيم ميخائيل دي سبينوزا رئيس طائفة اليهود الاسبانيين والبورتغاليين عام ١٦٣٩ . وكان أبوه أحد رجال الطائفة البارزين رئيساً لجمعية الاحسان اليهودي والمدرسة اليهودية . وقد تزوج مرتين فأعقب ثلاثة صبية وبنتين مريم ورفقه من زوجه الأولى المتوفاة عام ١٦٢٧ وصبياً هو باروخ الفيلسوف الذي ولد في أمستردام في (كرلف عام ٥٣٩٣ بحساب النتيجة العبرية) ٢٤ من نوفمبر سنة ١٦٣٢، من زوجه الثانية حنة دبوراه المتوفاة عام ١٦٣٨.

وتلقى سبينوزا علومه الأولية في المدرسة العبرانية التابعة لطائفة كتير توارة وفي صومعة بريرا « باشيبا بريرا » وكان التدريس يبدأ مع الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة ثم من الساعة الثانية إلى الخامسة ويتولاه إسحق دي فونسكا أبو آب ومنسى بن اسرائيل وشاؤل مورتيرا ؛ ويشمل درساً في اللغة العبرانية والتلمود والشريعة والفلسفة حيث كانت تدرس مذاهب وشروحات ابن ميمون وحسداي بن شبروت وابن جبريل وموسى القرطبي وابراهيم بن عزرا . وعلمه منسى بن اسرائيل أسرار « القبال » . ولكن خيل إلى سبينوزا أن تلك الدروس ليست وافية ولا كافية لإشباع رغبته وإرضاء ذهنه وفطنته ، وأراد أن

يتجاوزها الى ما فيه أرضاء ميوله العلمية . فلم يتردد في خوض ميدان البحوث والدراسات التي كانت تعد في ذلك العهد على هامش التعليم المقرر من الطائفة . فدرس اللاتينية وهي اللغة التي كان يتخاطب بها جميع علماء ذلك العهد . وعلمه أبوه اللغتين الاسبانية والبورتغالية. وكان إلى جانب ذلك يعرف اللغتين الهولندية والألمانية مع قليل من الايطالية والفرنسية . ودرس الرياضيات والعلوم والفوزيقا والميكانيكا الفلك والكيمياء والطب على فرانز فان دمبراند الشهير بغزارة علومه وسعة معارفه . ودرس كذلك مبدأ « النيوكلاسيك » الذي وضعه القديس توما الاكويني للتقريب بين المبادىء اللاهوتية والمبادىء الفلسفية ، ومؤلفات ديكارت العظيم الذي ساعدته كثيراً على دراساته الشخصية . على أن هذه الدراسات العلمية والفلسفية التي خاضها سبينوزا في شيء من المغالاة طبقاً لاتجاهات وميول عهد البعث الأدبي الثائرة والتي تدل على بوادر القطيعة التامة مع تعاليم « المدرسة » (وعلينا أن نذكر جيوردانو برونو وديكارت وجليليو) ، هذه الدراسات قد أثارت في ذهن الفتى سبينوزا أفكاراً لا تتناسب مع تعاليم الملة اليهودية وصوابها ووشى به اثنان من زملائه وأبلغا عن آرائه المارقة الملحدة وما هي عليه من الشبه مع آراء أوريل اكوستا وأورابيا وقصا على أساتذتهما أن سبينوزا قد جهر بالقول بأن الملائكة ليست في الحقيقة إلاّ أشباحاً وان النفس فانية ، وان الله ليس إلاّ نشوء الجسم وامتداده . ولا ريبة في أن تلك الآراء وان لم يثبت صحة صدورها عنه ، قد آلمت حكماء الطائفة . على أنهم لم يحكموا على سبينوزا فوراً وإنما حاولوا أن يسترجعوه اليهم فعرض عليه مورتيرا جعلاً سنوياً قدره الف فلورين نظير عدوله عن آرائه الجريئة . فأبدى سبينوزا اشمئزازه من من تلك الوشاية التي تشوه أساس فكرته ولم يخف كراهيته لمساومته على حريته خصوصاً وأن الذي كان يساومه أستاذ الذي يشعر بالغيرة منه . وفي اليوم السابع من شهر يوليه لسنة ست وخمسين وستمائة وألف قضى علماء الطائفة بحرمانه . وعلم قضاة أمستردام بتلك الواقعة وعدّ سبينوزا — من ذلك الحين — من ذوي الآراء الفاسدة والأفكار الجريئة السيئة . ولقد نجا بأعجوبة من طعنة خنجر دبّرها إليه أحد المتعصبين المتهوسين .

كان سبينوزا في الثالثة والثلاثين من عمره عندما هجر الأوساط اليهودية نهائياً ، وليس

شك في أن تلك العزلة قد أثرت في نفس مؤلف « الأخلاق » وأحدثت فيه شعوراً عميقاً بالحياة في وسط المجتمع أحب — في بعض نواحيها — من العزلة التي تحمل العقل على التأملات العميقة .

يقول سبينوزا : « فيما عدا الرجال فاننا لا نعرف في الطبيعة أي شيء غريب تستطيع النفس بواسطته أن تهبنا شيئاً من السرور ونستطيع نحن من جانبنا أن نرتبط به برباط الصداقة أو بأية صلة اجتماعية غيرها . »

كانت نفس سبينوزا وديعة تتألم من القضاء الذي يحيط بها ويكفي للدلالة على ذلك أن نورد العبارات الأولى من خطاب له يعبر فيه عن خلجات القلب واهتزازاته : « انها تملؤني حزناً وقلقاً . إن قلقي ما فتيء يزداد يوماً إثر يوم ولهذا السبب أرجوك وأستحلفك بصداقتنا ألا تمل من الكتابة الي طويلاً » .

ثم أنه لم يغادر الحظيرة اليهودية بغير مرارة وأسى ، فقد كانت له بمثابة حضن أمه . ومع احتفاظه بكنز هذا الحضن الثمين وطهره فإنه يرد على أولئك الذين لم يدركوا عبقريته من تلقاء أنفسهم في كتابه « نبذة في اللاهوت والسياسة » الذي أحدث هزة عنيفة بعد ظهوره . وهذا ما حمل نيتشه على اهدائه هذه المقطوعة الشعرية :

« أيها الناظر الى « الكل في الفرد »
« أيها الحب الالهي ، السعيد بما يفكر فيه العقل »
« انزع حذاءك : ان الأرض مقدسة ثلاث مرات ! »
« ولكن ، سراً ، تحت ستار هذا الحب »
« كانت تغلي مراجل حقد كمين »
« فمن رب اليهود يستتر حقد اليهود ... »
« أيها الناسك ! هل فهمتك ؟ ... »

وذهب بعد قطيعته ليقيم في حجرة عالية مطلة على طريق أووردك بالقرب من أمستردام وهناك أخذ يتردد على منتدى « الكوليجان » وهي شيعة متوثبة كشيعة « الكواكرس » ومرحان ما أصبح هذا المنتدى له واحة الأذكار اذا أمها قام فيه حبيبون دنيوس بمهمة كاتم السر

وظل سبينوزا على اتصال متبادل مع أصدقائه في امستردام بكاتبهم بلا انقطاع . وكثيراً ما كانوا يلجئون إليه ويستوضحونه بعض المسائل الفلسفية العميقة . وفي غضون ذلك كان يكسب عيشه من قطع الزجاج وصقله للعدسات . وهو مدين بهذا الفن إلى معلوماته الرياضية وما فيها من تناسب وتناسق، ثم إلى تربيته العبرية القائلة بأن المهنة التي يمكن المرء كسب عيشه منها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثقافة الخالية عن الأغراض أو بدراسة التوراة . ويتبين من المقدمة اللاتينية لكتاب الذي نشر بعد تحت اسم « بعد الموت » إنه باشتغاله في صقل الزجاج واعداده للتلسكوبات والميكروسكوبات قد برهن « على ما كان يستطيع أن يعمله في هذا الفن وانه لو لم يعاجله الموت في غير أوانه لأمكنه أن يقوم باكتشافات جليلة في هذا المضمار».

وكان له تلاميذ في الفلسفة وكذلك في اللغتين اللاتينية والعبرية . أما أصدقاؤه في عهد توجيهه أي بين ١٦٥٦ و ١٦٦٠ فكانوا بيتر بالنج وجاري جلس ولودفج ماير وسيمون جوستم وفرلس وجان ريوفرتس .

ولقد اعترف الراعي كولروس أنه لامجال للشك في أن سبينوزا قد تعلم شيئاً آخر في « مدرسة الشيطان » عن فرنسيس فان اند ، وقد شعر بعاطفة حب نحو ابنته .

وفي سنة ١٦٦٠ انتقل للاقامة في رينسبورج بالقرب من ليد ، والمنزل الذي كان يقيم فيه لا زال قائماً للآن ، كما أن الشارع الذي يوجد فيه يحمل اسم الفيلسوف . إن الرغبة في العمل التي كانت تتأكله بلغت عنده غايتها حتى لقد قضى ثلاثة أشهر دون أن يظهر أمام الجمهور . وقضى سبينوزا في تلك المدينة خمس سنوات في عيش هادىء بسيط وتأملات سامية عميقة ، وكتب رسالة في « إصلاح الادراك العقلي » وأخرى في « الاخلاق » على نحو ما تكتب البراهين الهندسية ، انتهى من وضعهما عام ١٦٦٥ . بيد أن تلك الفترة لم تنتشر أبان حياته لما اتهم به — كما كتب إلى صديقه أولدنبورغ — من أنه أعدّ للطبع مؤلفاً يحاول أن يدلل فيه على عدم وجود الله . وقد انتهز تلك الفرصة بعض رجال اللاهوت الذين روّجوا تلك الاشاعة ورفعوا شكاية إلى الأمير والقضاة . ولم ينشر كتاب « الاخلاق » إلا عام ١٦٧٧ ، أي بعد موت الفيلسوف وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه نبذته عن « قوس قزح » ونبذة أخرى غير مستوفاة عن السياسة . وفي عام ١٦٥٤ تمتاز أوراق

على « نبذة صغيرة في الله والانسان » كتبت باللغة الهولندية ويمكن اعتبارها مذكرة تمهيدية لكتاب « الاخلاق » . وكتب كذلك مؤلفاً صغيراً عن القواعد التي يمكن بواسطتها حساب الخط .

أما الكتب التي نشرت في حياته ، وأحدها تحت اسم مستعار ، فهي « مبادىء فلسفة ديكارت » عام ١٦٦٣ وقد وضعه خصيصاً لتلميذه ألعاب البير دي بورج لأنه لم يشأ أن يطلعه على أسرار فلسفته الخاصة ، وذيله بنبذة عن « الفكر » ، ثم رسالة في « الدين والدولة » عام ١٦٧٠ . وقد ظهر هذا الكتاب ضمن فهرس الكتب المحظور بيعها ، فكان هذا الحظر عاملاً على رواج الكتاب وصاروا يتداولونه تحت أسماء مستعارة ، وكتبت عنه مؤلفات كثيرة انتقده ودحض ما جاء به .

وعظمت شهرة سبينوزا ، فأصبح على اتصال وثيق بذوي الحيثيات . فالى جانب هنري أولدنبرغ ، أول كاتم سر للجمعية الملكية في لندن الذي كان يراسله طويلاً ، كانت علاقته شديدة بستنو مؤسس الجيولوجيا الحديثة ، وهوجنس صانع العدسات ؛ وليبنتز الذي زاره عام ١٦٧٦ ، والدكتور لويس ماير ، والكونت تشيرنهوس . وقد كانت صداقته بجان دي ويت متينة واستمرت تلك الصلة زهاء خمس وعشرين سنة . وعندما قتل دي ويت وأخوه على قارعة الطريق بيد جماعة من الشعب إذ ظنوا أنهما السبب في هزيمة الجيوش الهولندية في حربها مع فرنسا عام ١٦٧٢ ، بكى سبينوزا بكاء الأطفال عند سماعه نبأ الجريمة ولو لم يحل بينه وبين عزمه بالقوة لكان انتقل ، كما فعل أنطونيوس عند مقتل قيصر ، إلى مكان الجريمة وندد بفاعليها . وبعد ردح قصير من الزمن استدعاه البرنس « دي كونديه » ، قائد الجيش الفرنسي ، إلى زيارته في معسكره ليهنئه على ثقة ملك فرنسا ومودته والجعل السنوي الذي قرر أن يمنحه إياه ثم ليقدمه له بعض المعجبين به . ولما كان سبينوزا « أوربياً طيباً » أكثر مما كان وطنياً متعصباً ، فإنه لم يجد في تلك الدعوة غضاضة وسار إلى معسكر « كونديه » وعندما آب إلى لاهاي كان نبأ تلك الزيارة قد انتشر فثارت ضده عاصفة استياء هوجاء وخشي فان دن سبيك مضيفه أن يهاجم الشعب بيته . فطمأنه سبينوزا بقوله : « انني لأستطيع أن أبرىء نفسي وأتبرأ من كل خيانة أوربية . . . فاذا أظهر الشعب أدنى

ميل لمضايقتك — ولو على سبيل التجمهر والصياح أمام منزلك — فاني أذهب اليه وأواجهه ولو لقيت حتفي منه كما لقيه المسكين ويت ». على أن الشعب عرف أن سبينوزا ليس إلاّ فيلسوفاً فقرر ألاّ خطر منه. إذ ذاك هدأ اضطرابه وسكن.

وأقام سبينوزا عدة سنوات في رينسبورج ثم انتقل منها للاقامة في فووربورج عام ١٦٦٣. وفي سنة ١٦٧٠ قرر الاقامة في لاهاي بالذات حيث عقد أواصر صداقة متينة مع كثير من الاخوان الأوفياء من ذوي المكانة والنفوذ.

وكان يعيش عيشاً بسيطاً جداً! قانعاً للغاية، لا يرمي من ورائه إلى غاية أو غرض. فنفقاته اليومية كانت قاصرة على النذر القليل وهذا ما كان يساعده على العيش طيلة عامه في حدود ميزانيته. ويصف نفسه بأنه يفعل كما تفعل « الأفعى التي تضع ذنبها في فمها لتستريح » وكان سبينوزا — على الرغم من طبيعته الصوفية — لا يمتدح الزهد والتنسك ويتقبل الحياة مرحاً مسروراً. وقد كتب في ذلك: « إن الضحك وكذلك المرح والمزاح ألوان من السرور فهي والحالة هذه مستحبة في ذاتها ما دامت بغير إفراط. وليس ما يحول دون الاستمتاع بالملذات إلاّ عوامل وحشية وتطيّر كئيب. فهل يوجد خير من إقصاء الضجر والهموم لاخماد وطأة الجوع والظمأ؟ تلك هي طريقتي وكل عقيدتي وايماني. وإذا نحن استثنينا الحسود فإنه لاتوجد أية الوهية تسر من عجزي وألمي، وليس أقدر منها على جعل دموعنا وزفراتنا وخوفنا، وغيرها من مظاهر ضعفنا الباطن، بمثابة فضيلة فينا. وإن الامر لعلى عكس ذلك، فبقدر تعاظم السرور الذي يبدو فينا، وبقدر تعاظم درجة الكمال التي ننتقل إليها، تكون نسبة اشتراكنا في الطبيعة الالهية كبيرة. وإذن فمن الحكمة كما كنت أقول، أن يستعين المرء في غذائه وتجديد قواه، بأطعمة شهية وشراب لذيذ مع مراعاة الاعتدال في تناولها، كما يستعين أيضاً بالعطور وينعم بالنباتات الزاهرة والرياحين والزينة والموسيقى والألعاب الرياضية والتمثيل وما أشبه ذلك من الأشياء التي يستطيع كل انسان أن يتمتع بها بغير ما اضرار بالغير ».

ولم يكن سبينوزا بعيداً عن الحياة السياسية أو غير مكترث بها. فمغامرته في هذا السبيل كادت أحياناً تودي بحياته. وقد عنّ فريقه في هذه الحياة على الرغم من المآزم التي توقع

عليه ولـكنه لم يكن يطمع في جاه أو ثروة . ومن تلك الناحية كانت حياته عـديدة الشبه كثيرة الملاءمة بحيـاة الطبقة الراقية الارستوقراطية وبالروح الـسائدة في بني اسرائيل والأنبياء وعظماء الرجال الذين سموا بأفكارهم وأحلامهم الجليلة والمكابيين ويسوع. وقد رفض هبة ألفي وخمسمائة فلورين قدّمها له صـديقه سيمون دي فريس من ثراة تجار امستردام . وعندما عرض عليه المذكور بعد ذلك أن يخلف له ثروته بأكملها ، أقنعه سبينوزا بأن يترك جميع ما يملكه لأخيه . وعنـد وفاة التاجر النصح انه حدد في وصيته أن يمنح سبينوزا معاشاً سنويـاً قدّره بستمائة فلورين تؤخذ من ريع أملاكه فحاول سبينوزا مرة أخرى التخلص من تلك الهبـة قائلا : « ان الطبيعة تقنع بالقليـل وما دامت حالها كذلك فتلك هي أيضاً حالي » . على انهم حملوه في النهـاية على قبول ثلاثمائة وخمسين فلورين في كل عام . وضمن له صديق آخر ، هو جان دي ويت كبير قضاة الجمهورية الهولندية مائة فلورين معاشاً من الدولة . وفي النهاية عرض عليه الملك العظيم لويس الرابع عشر بنفسه معاشاً بشرط أن يهديه سبينوزا المؤلف الذي سيضعه . فرفض سبينوزا هذا العرض في قالب مفرغ باللباقة والـكياسة . كما رفض منصب محاضر في جامعـة هايدلبرج وأجاب على ذلك العرض المغري بما يأتي :

« لو انني فكرت من نفسي بميل يدفعني يوماً الى شغل منصب للتدريس لما رغبت »
« نفسي في غير المنصب الذي يعرضه عليّ سمو الحاكم بواسطتكم لا سيما وان سموّ الامير »
« قد تنازل ومنح لي حرية التفلسف . ناهيك عما أشعر به من رغبة في العيش في بلد »
« يحكمه أمير يعجب الكل بحكمته . بيد انني لم أشعر أبداً بدافع الى التدريس ولذلك »
« لم أستطع أن أحمل نفسي على انتهاز تلك الفرصة الطيبة . ان أول ما أفكر فيه هو »
« انني سأضطر الى التخلي عن أبحـاثي الفلسفية اذا أنا انقطعت الى تعـليم النشء . »
« ومن جهة أخرى فاني أجهل الحد الذي ستقف عنده حرية آرائي الفلسفية حتى »
« لا أتهم بمظهر من يحاول أن يعكر صفو دين الدولة الرسمي . . . فأنت ترى إذن »
« ياسيدي ، أن ما يعنيني ليس الطمع في حظ أوفر ولكن هي راحتي وطمأنينتي »
« التي يجب أن أنميها وأصونها بتجنب الدروس العامة . »

كان سبينوزا يجلس امام مكتبه منذ الفجر فيعمل ويتأمل . فلا يقطع قطعة من الاسطوانة الزجاجية عادته إلا « ويستأصل فكرة من المذهب العظيم الذي كان كامناً في خبيئة نفسه بحالته الطبيعية دون أن يهذبها أو يصقلها »

وكان يترك حجر المسن من وقت لآخر ليجلس الى جانب زائريه في البهو الكبير . وأحياناً كان يدخن غليوناً مع الرسام الشهير فان دن سبيك ويتحدث معه عن الرسم ، اذ أن سبينوزا كان يعرف الرسم ولديه كراسة مليئة بالصور . وكان كذلك يرسم صور من زاروه من مخيلته .

ولم يطل أمد تلك الحياة المضطربة القلقة . وكان مصاباً بسل رئوي . فاستسلم مع الأسف لموت مبكر عاجل ، على الرغم من أنه كان يكتب الصفحات المؤثرة الدقيقة في معنى الحياة وفوائدها . ولكنه كان يخشى على أشهر مؤلفاته « الأخلاق » من الضياع أو العبث به عقب موته . فوضع أصول هذا المؤلف النفيس في مكتبة صغيرة لديه وسلم مفتاحها الى مضيفه وسأله أن يحمل المكتب بما فيه الى جان ريو ورتز الناشر في أمستردام إذا ما حم الأجل المحتوم . ومات الفيلسوف في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٣٠ فبراير لسنة ستمائة وسبعة وسبعين وألف وهو في الرابعة والأربعين من عمره بين ذراعي صديقه الوفي ، الدكتور لويس ماير . وحمل جثمان الفيلسوف ، بعد أربعة أيام إلى المعبد حيث صلى عليه الراعي كوردس ثم نقل النعش إلى المدافن حيث وضع في حفرة عمومية . وقد بكاه كثير من الناس لأن كثيراً منهم أحبوه لوداعة أخلاقه بقدر ما أجله العداء لحكمته . وانضم عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين ورجال القانون إلى جموع الشعب في تشييع الراحل الى مقره الأخير .

وأرسل صديقاه لويس ماير وشولر جميع مؤلفاته التي لم تنشر الى ناشر كتبه ريو ورتز في أمستردام سراً فظهرت كلها في نهاية السنة التي مات فيها أي عام ١٦٧٧ تحت عنوان « أوبرا بوستوما » بقلم ب . د . س . وكانت تشمل « الأخلاق » و « النبذة السياسية » و « اصلاح الادراك العقلي » و « رسائله » و « الأجرومية العبرية »

٣ – مصادر المذهب الاسبينوزى

انه لمن أهم الأمور — قبل التبسط في تحليـل دقيق لمذهب سبينوزا — أن نستظهر ، على قدر المستطاع ، جميع نواحي إلهامه ؛ إذ أن كثيراً ما يُساء فهم فلسفة سبينوزا ، وكثيراً ما تطبق تلك الفلسفة بطرق متنوعة متباينة ، وأحياناً تكون في تطبيقها خاضعة لمزاج من يدرسها واستعداده الشخصي . فالماديون والروحانيون والعلماء والمفكرون الأحرار لا يترددون في أن يسندوا إليها ، كل بحسب طريقته ، صفات غريبة عنها على الرغم ، طبعاً ، من تحبيذهم لها أو اشمئزازهم منها . على أن ما هو أعظم من ذلك هو أنهم يحاولون الجزم بتبعية تلك الفلسفة لاحدى الأقيسة . ولكنهم يخطئون كثيراً في فهم سبينوزا .

لا شك في أن سبينوزا قد تأثر كثيراً . ولكن ، أي مفكر يستطيع القول بأن ما أورده كان — على الاطلاق — من ابتكاره الشخصي دون أن يلجأ — ولو عن غير عمد — إلى أفكار أخرى مطابقة لأفكاره تماماً ؟ على أنه قلّ أن تحافظ تلك الأفكار على صبغتها الأصلية عند العالم المتعمق في النظريات ، لأنها تتأثر وتتحوّل في دماغه تحولاً عميقاً فتتخذ شوءاً جديداً وتتضخم بحصة جديدة من الأفكار المستحدثة . وهذا ما يفسر لنا الشخصية الخلاّقة في سبينوزا . فالى جانب العلاقات المتنوعة التي تربطه بطبيعته إلى تلك المدرسة أو سواها ، يوجد سبينوزا بالذات كما توجد عبقريته الخاصة ، والابتكارات الفردية التي يخلقها الفنان الذي يمثل حمله عروقه التي يسري فيها دمه ونفسه ، والذي لا يبدي استعداداً ما للامتزاج بغيره أو الاندماج به .

ومع ذلك فإذا نحن حاولنا أن نشرح المذهب الاسبينوزي بتحليـل مستفيض دقيق . فلا شك في أنه يمكن اكتشاف عناصر مختلفة يحتمل تقسيمها تيارين واضحين بينين ، الفلسفة اليهودية وفلسفة ديكارت . إن أصول علمه بما بعد الطبيعة ، والتبلور الذاتي لتأملاته السامية ، تقوم كلها على أساس يهودي جوهري . أما الأسلوب ، أو إذا شئنا ، الكيفية

التي يقدم بها قياسه في مظهر واضح جلي ، فلا شك في أنه مقتبس عن مبدأ ديكارت . إن الرجل ، مهما كانت ملكة التشبه فيه قوية ، لا يستطيع بتاتاً أن يمحو أساس كيانه الذي ترتبط به أليافه بنواة وراثية خاصة . ان جميع الأفكار الجديدة التي يكتسبها لا تنتعش فعلا ما لم يكن بينها وبين تلك النواة نوع من التجانس . فالجديد يلحق بالقديم بصفة وقتية بحيث يسهل تمييزه وفصله . ولا يمكن أن يمتزج بالقديم تاماً إلاّ إذا اكتسب نوعاً من القوة المرتبطة بعدة زمنية بعيدة المدى لا تقل في نسبتها عن عدة أعقاب .

وإذن، فيما يتعلق بالمذهب الاسبينوزي، يجب أن نبدد في الحال خطأ يخال أنه سيظل متأصلاً في أذهان بعض الشراح البارزين ، فمذهب سبينوزا برمته هو ، في نظرهم ، عبارة عن مذهب ديكارت مع بعض الاختلاف وبعض المغالاة . ولكن إذا نحن تناولنا الاشياء في ذاتها، أي إذا نحن أعدنا الحكم إلى الموضوعية بعد أن تتوارى أمام الوقائع ، وهذا ما يجب على كل باحث منقب أن يعمل به — فاننا لا نلبث أن نلاحظ أن سبينوزا ، في خصائصه وذاتيته ليس قريباً لديكارت ، وأن هناك هوّة سحيقة بعيدة الغور تفصل بين الفيلسوفين . إن ديكارت من أتباع الاستقرار الاجتماعي وسبينوزا من أتباع التحرر الاجتماعي . إن الأول « عقلي » يتقيد بكل ما هو جلي بيّن وبكل ما يمكن أن يتحول إلى رياضي بحت وبكل ما هو كمّي يمكن تمييزه ، في حين أن الثاني متصوف ومذهبه العقلي ملطف ويلوح كأنه آلة للتفسير الحسن . إن سبينوزا عالم بحث بما وراء الطبيعة وهو يرمي في منهجه إلى ادراك التامة في الحال والوصول إلى « الـكل الأعظم » ، إلى الـكون ، إلى الله ، في حين ان ديكارت الذي بدأ من البسيط ليصل إلى المتعدد دون أن يحيد عن المنظور والمحسوس ، قد ترك الالوهية للاهوتيين وقدم عمله على أن نشرح شرحاً واضحاً ، بعد فترة لا شك طويلة ، حقيقة قوله « إنني أفكر وإذن فأنا موجود » ، والحركة الجبرية التي تنشأ عن هذا التحول . وقد كتب سبينوزا الى اولدنبورغ : « تسألني عن الأخطاء التي ألاحظها على فلسفة ديكارت وفلسفة باكون ؟ إنني وإن كنت لم أتعوّد الاشارة الى أخطاء الغير الا أنني أسلم برغبتك . إن أول الأخطاء وأعظمها هو انهما بعيدان تمام البعد عن معرفة السبب الأول في جميع الأشياء

وأصلها . والثاني هو انهما لا يعرفان حقيقة طبيعة النفس البشرية . والثالث هو أنهما لم يدركا السبب الحقيقي في الخطأ » .

ان « بروشار» قد ميز تماماً علاقة سبينوزا بالفكرة اليهودية وإن كان يمكن إبداء بعض التحفظات على ما كتبه عن «رب» اسبينوزا ، فقد قال : « لا يجب أن يغرب عنا أن طريقة مدرسة الاسكندرية في فهم معنى الالوهية وتصورها كما أخذها سبينوزا عن أساتذته اليهود والعرب ، مرتبطة منذ نشأتها بالدين اليهودي . فالفكرة اليهودية قد انتقلت إلى العالم الغربي بواسطة « فيلون » في بدء عصرنا . فوجود مثل هذا التجانس الطبيعي كان لا بد أن يحمل سبينوزا على البحث عن مدارك من هذا القبيل . فما كاد يكتشف عند خلفاء أفلوطين تلك الطريقة في فهم الله وتصوره وملاءمتها لمداركه وتفكيره ، حتى استأنف سيره في تلك الطريق مع بقائه وفيّاً لروح جنسه . ومما لا شك فيه أن أسس منهجه وكذلك روح ذلك المنهج قائمة على فكرة يهودية على الرغم مما طرأ عليها من تعديل واضافة . « فربُّ » سبينوزا هو « يهوه » مع كثير من التحسين في طريقة فهمه وكيفية تصويره» .

لقد قرر هرفدنج صراحة كما قرر جوئيل، « انسبينوزا لم يكن ديكارتيّاً على الاطلاق ولكنه درس كثيراً تعاليم ديكارت ، واستعان بالكثير من أفكاره ، واستخدم جزءاً من مصطلحاته الفنية » . ولا شك في أنه أخذ عن ديكارت طريقة ترتيب الحقائق وتنظيمها مسلسلة وهي تلك الطريقة التي تبدأ « بعرض الأفكار واضحة جلية وتظهر قوة الإدراك وغزارة الفهم بواسطة خلق العلوم الرياضية وعلم الطبيعة » . فديكارت هو الذي عنده « أن اكتساب اليقين سابق لاكتشاف المنهج » . وعلى هذا الاعتبار يلاحظ برونشفيج أنه « إذا كان المعنى الظاهر عند سبينوزا مقتبس من ديكارت فإنه « يعتبر متمماً للمعنى الظاهر عند ديكارت نفضل ما أضافه إليه من الافكار الجريئة » . على أن جول لانيو، الاسبينوزي المدقق ، يشرح لنا بحذق ولباقة أنه « يجب فهم المنهج » أو بالأحرى نفس سبينوزا حتى يمكن الوصول إلى فهم أهمية الطور الاول ، واستنتاج حصة المذهب الديكارتي منه وهي تكاد تكون معدومة ، وحصة المذهب اليهودي وحصة المسيحية وهي الراجحة : فتكون النتيجة » إن الفرق بيّن بين سبينوزا وديكارت . ويستطرد لانيو :

«لأن ديكارت يبدأ بالشك في حين أنه لا يوجد أثر للشك عند سبينوزا ، فهو منذ أن وضع مبداه ، متعمق في الايمان، وذلك لأن كل ما فيه نتيجة الشعور والاختبار الداخلي».

إن « سعيه وراء الوحدة المطلقة يهودي النزعة » ومنهجه يعد في جوهره « انتقاماً» للفلسفة العامة وللفلسفات اليونانية والشرقية والمسيحية من المذهب الواقعي الفرنسي. إن شك ديكارت الوقتي ليس في الحقيقة الا مبدأ تاماً وقطيعة كلية للعادات البشرية. ودخل سبينوزا الميدان وبين أن الفكرة العلمية ستكتسب من دخوله أكثر مما ستخسره. وإلى جانب ذلك فان أساسه الديكارتي الذي يرتبط ، بوجه خاص « بالمثال عن الاسلوب » يتغلب ، على حد ملاحظة فرودنتال ، على جميع ما استعاره من الفلسفة المدرسية .

وإنه ليظهر أن جيوردانو برونو إذ يتمسك بأن « المبدأ الاول لانهائي في جميع خصائصه وبأن إحدى تلك الخصائص هي الامتداد ، يعد مصدراً غير مباشر للاسبينوزية . إن بايل كان يدلل على أن افتراضه شبيه تمام الشبه بالاسبينوزية . . . » ليست عظمة الله وما يتبعها عقيدة أقل إلحاداً عند جيوردانو برونو منها عند سبينوزا . فكلاهما من أشد أنصار الوحدة» . ان النقد الحديث مع صيجوارت وأفيناريوس» قد بين أوجه الشبه، إلى حد ما ، بيد إنه لم يستطع أن يميز أيها يحمل البرهان على تأثير « برونو» عليه تأثيراً خاصاً .

إن وراء برونو وسبينوزا يوجد مذهب الأفلاطونية الحديثة « الذي أثرت روحه في علم ما بعد الطبيعة الذي يدرسه رجال اللاهوت اليهود» أول أساتذة سبينوزا » إن « برونو» على حد الملاحظة الصادقة الواردة في الموسوعة اليهودية ، قد استلهم الوحي بغير ما ريب ، من الكباليين الذين يدينون بمذهب الحلول، أي أن الله موجود في الكون وليس هو علة انتقال

ومع ذلك فان جوئيل يُلح في تلك الفكرة وهي أن سبينوزا ليس ابن «البحث» أو مريد ديكارت . إن قرابته يهودية بنوع خاص . إن مؤلف « الاخلاق » يستشهد بأسماء بعض حكماء اليهود كيهوذا النهار وحصداي كرسكا . وجرسونيد وابن ميمون الذين اقتبس عنهم. وقد اكتفى سبينوزا بكثير من أعمال هؤلاء المفكرين وغيرهم كراشي وابن عذرا واستعان بها دون أن يأتي على ذكرهم . إن تمييز الخصائص عند سبينوزا وكذلك نظرات هذا الفيلسوف عن الخليقة وعن الارادة الحرة وعن حب الله وعن مذهب القدرية قد ورد ذكرها في « النور

الالهي» الذي ألفه حصداي . وبالاجمال فان جوئيل يضيف «كل ما أمكن أن يزهر في دوامة سبينوزا النظرية يمكن أن يميز عند كرسكاس » . ففي الحب الروحاني يلاحظ جوئيل أيضاً أن سبينوزا قد اقتبس عن كرسكاس ، فيما يتعلق بالحب ، وعن ابن ميمون كل ما هو خاص بالادراك والفهم . إن سبينوزا ، على غرار حصداي كرسكا ، يعارض ابن ميمون وأرسطو. على ان هذا لم يمنعه من الاقتباس من مؤلف «دلالة الحائرين»[1] . لاسيما في رسائله عن الشكل الانساني فبعض فقراتها تقوم دليلاً قاطعاً على تأثير ابن ميمون عليه تأثيراً كبيراً .

وهناك أيضاً مصدر يهودي هام لجأ إليه سبينوزا واستقى منه كثيراً من العناصر لارتباطها ببحوثه فيما بعد الطبيعة ، وهو « الكبال » . وفيلسوف كفتروج لم يجهل ذلك أو ينكره حيث يقول : « لقد قرأت كذلك لبعض الكباليين ووقفت على ترهاتهم وأباطيلهم ودهشت كثيراً لجنونهم »

إن روحانيته تمتاز بطابع خاص . ولاشك في أن هذا الطابع كان يحول دون استساغتها للناحية الخيالية التي تنطوي عليه الرموز الكتابية وما يحيط بها من الأوهام . بيد أن تصوفه ، وكثيراً من نواحي مذهبه وأركانه الهامة ، مشتقة بغير ما ريب ، أو قل ما يكون بغير ما شعور بالواقع أو تعمد ، من « الكبال » . إن الصورة التي وضعها للكون لا تخلو من بعض الشبه مع ما تصوره به العوالم . كما ان فكرته عن الحلول شبيهة بفكرة الفيض ، ومن ناحية أخرى خاصة . فإن اللانهائي عنده شبيه بالازلي . إن الازلي في عرف «الزوهار» الذي يوجب الانبساط والامتداد يؤدي « في انعطافه إلى الفكرة وإلى المادة ولا يخرج عن كونه المحافظ للفكرة بالذات » . وفي ذلك يكتب سبينوزا : « وهكذا فإن نوع الامتداد وفكرة هذا النوع ، ليسا إلاّ شيئاً واحداً ، ولكن يعبر عنهما بطريقتين مختلفتين ، وهذا ما يخيل إلى بعض العبرانيين انهم رأوه كما ترى الأشباح خلف الغمام »

وإنه ليكفي أن نورد جملة من موسى كوردوڤرو ، مفسر «الزوهار» المبدع ، للوقوف على ما يوجد من التقارب بين المذهب الاسبينوزي والكبال : « إن الخالق يؤلف بذاته المعرفة ، والذي يعرف ، والشيء المعروف . وفي الواقع أن طريقته في معرفة الشيء لا تقوم على

---

(1) Guide of the Perplexed

تطبيق فكرته على أشياء خارجة عنه . ولكنه ، بفضل معرفته لذاته وعلمه بذاته ، يعرف كل ما هو كائن ويرى كل ما هو موجود . فلا يوجد شيء إلا إذا كان متحداً معه ويوجد في جوهره الذاتي » .

وقد قال سبينوزا كذلك : « لا يوجد أي سبب ، سواء أكان خارجاً عن الله أو في ذاته ، يدفعه إلى العمل إن لم يكن كمال طبيعته » .

ويقال أيضاً — ونحن نورد ذلك في منتهى التحفظ — ان سبينوزا قد تأثر قليلاً بحوار الحب الذي ألفه ليون العبري (مؤلف نشر عام ١٥٣٥)

إن جميع المصادر التي جئنا بها تتضمن ، في الواقع ، أشياء قليلة عن المذهب الاسبينوزي فهذا المذهب ، في مجموعه يتجلى لنا كمجهود عظيم وبناء ضخم . والواقع أن سبينوزا تأمل طويلاً في الليالي الطويلة التي أرقته وما قرأه لم يكن ذا تأثير كبير عليه . إن قوته الخلاقة المتجلية في كتاباته تدل على بدعة نادرة ، خصوصاً إذا كانت ترمي الى دائرة معقدة فسيحة تشمل الكون بأسره .

٤ - الاسبينوزية

إن الفائدة النظرية من فلسفة سبينوزا تقوم في الواقع على اعتبار « الكل » وعلى علم « ما بعد الطبيعة » والذي يرمي الى تفسير أصل الأشياء وكل ما يطلبه العقل الحائر. فهو لا يستسلم لأي كذب أو اختلاق أو أي تقريب أو أي شك أو أية مرعة. ليس علم ما بعد الطبيعة في نظره مكاناً متشعب الطرق يخشى الضياع فيه، فهو قائم على قواعد صحيحة مختمرة ذات قيمة علمية وثيقة صارمة غير قابلة لأي نزاع كالقواعد الرياضية البحتة. على أن نقطة البدء في تلك الفلسفة يترك في ذهن من يدرسها بعض الغموض على الرغم من متانة العمل وجلائه في ارتباط براهينه وإيضاحاته. ويجب، لفهم سبينوزا، ألا يكتفى بالتقمص في روح هذا الفيلسوف أو حسّها بتأمل دقيق طويل، ولكن يجب ألا تفوت الذاكرة، ان التركيب الحكيم ذا النظم الرياضية الذي يتجلى به صنعه — وأخص بالذكر مؤلفه العظيم « الأخلاق » — ليس في الواقع إلاّ وسيلة عظيمة خصصت لتبديد بعض الأخطاء الشائعة في عصر تجلت فيه ثورة العقل البشري تحت مراقبة العقل السامي الفعّالة. إن سبينوزا أحد أتباع النزعة المتحمسين ومن أشياع ذلك الجو الثوري الذي عاش فيه رجال أمثال كوبرنيكوس وجاليليو وبرونو وجيلبرت وهارفي وبويل وديكارت وهوجنس وبسكال وليبنتز ونيوتن. انه يخول للعقل دوراً رئيسيّاً ما دام أنه لا يتردد في إخضاع مراقبة الكتب المقدسة لتصديق العقل. على ان ذلك في الواقع ليس إلاّ وسيلة ظاهرة بعيدة عن أن تذلل الصعوبة الملازمة لفلسفة سبينوزا. لقد كان سبينوزا وسيظل في ذاته متصوفاً حدسيّاً. فوراء جميع الخطوط الجلية المنتظمة أو الهندسية التي تملأ بوجه خاص كتاب « الأخلاق » يتوارى العقل الملتهب الثائر ذو القوة الكامنة، عقل النبي الذي يدرك الألوهية والكائن الكلي عن طريق الرؤيا أو الالهام أو نوع من التجانس مع الأشياء. ومثل هذا الخلق يميل إلى الفكرة، من تلك الناحية، استعداد الخالق الخلاق والفنان العبقري. إن سبينوزا يلتقي،

٥ – حضارة المذهب الاسبينوزى وتأثيره

لقد وقفنا بما تقدّم على الصفات المميزة لتلك الفكرة الفنية التي جمعت في أغراضها الكون بأسره أو الكل . وقد لاحظنا كذلك ان فلسفة سبينوزا ليست غريبة عن شجون الحياة اليومية الكثيرة التي تشغل الانسانية . إنها ترمي ، تحت مختلف مظاهرها الميتافيزيقية والأخلاقية والنقدية إلى إعطاء حلول موفقة وارشاد من أزعجهم القلق إلى حد الإضناء، ومن يتألمون في داخليتهم وهم صامتون . إن سبينوزا إذ يتوجه بحديثه في مؤلفه الشهير « نبذة في السياسة » إلى عطف « القارىء الفيلسوف » لا يخشى أن يحطم من أساسها العقائد التي لا تتفق مع النور الطبيعي، ولا مع ذكاء الأحياء الوقاد . إن التطير هو الذي يصعب استئصاله من نفوس الدهماء. ولقد كان هذا التطير السبب الأوحد « في كثير من الاضطرابات والحروب الطاحنة » . وكان سبينوزا لا يتردّد في نقد الكتب المقدسة نقداً شديداً عند ما يتناولها بالفحص الدقيق وحرية الرأي والتفكير بغير ما تحيز أو تحايل . وهكذا كان يندّد كثيراً من الأغلاط والأخطاء . « ليس للمعرفة الملهمة غاية غير الطاعة » . ثم إنه يشهر بالجشع السافل والطمع عند من يدّعون نشر الايمان بالله وهو يقول :

« لقد رأيت مراراً عدة ، رجالاً يفاخرون بتعاليم الدين المسيحي ، أي تبادل الحب والأخلاص بين الجميع ، رأيتهم وهم يتنازعون فيما بينهم ، ويتناحرون بحدّة وسوء نية متناهية، ولا يخفون عن بعضهم أمارات الحقد والضغينة، بحيث كان إيمانهم يتجلى من هذه العواطف أكثر من تلك » .

إن الغبطة الحقيقية ، ليست من حظ البعض دون البعض الآخر وهي كينبوع لا تستثني أحداً . « وإذن فمن يُسر من ضرر الغير فهو حسود لئيم لا يعرف الحكمة ولا السكينة في الحياة الحقيقية . »

تؤثر في عالم الروح وفي عالم المادة ، يدعونا سبينوزا إلى إمعان النظر في نفوسنا وفي كل شيء من الوجهة الأزلية . وإنه بذلك يبدد ما يقلقنا من شكوك إذ يجعلنا نشعر بأننا نكوّن وحدة مع الكائن السرمدي اللانهائي .

فلنجتهد في أن ندرس عن كثب جمال تلك الفكرة وغناها في مختلف أدوارها وأطوارها .

١ — طبيعة المعرفة

ان سبينوزا ، بما عرف عنه من شدة الاهتمام بصحة ما يؤكده من الحقيقة والبحث عن الحقيقة ، يشرح بصراحة لا تني الانتقال ، ماسلة مبادىء ، لم تتم ، مع الأسف ، عن تنظيم الادراك العقلي . وان الانسان ليرى فيها ، كما يرى في جميع كتاباته وفي جميع نظرياته ، روح الفنان ، روح سبينوزا تتلألأ وتتجلى في اتحاد غرضين متباينين تمام التباين : فمن جهة ، العالم بما بعد الطبيعة الذي يقدر ، في كل ما يعالجه ، مثبت الأشياء وقيمتها الأصلية والكائن في جميع عظمته وسلطانه ، ومن أخرى ، المهذب الاخلاقي الذي يراعي دائماً الحرية والسعادة والغاية والحياة الداخلية السعيدة .

وهكذا فإن فيلسوف لاهاي ، قبل أن يشركنا في المنهج الذي لابد من وجوده لتقدير الأمور على وجهها الصحيح ، يعترف لنا بتواضع بمقدار ما لقيه من عناء وتفكير ليتوصل إلى اكتشاف هدوء النفس وحالتها الطبيعية . ولقد كتب :

« لقد علمني الاختبار أن أغلب المصادفات التي تقع في الحياة العادية وهمية باطلة »
« ولقد كنت أرى انه لا يوجد بين الأشياء ، التي كانت لي سبباً أو مادة للخوف ، »
« شيء واحد يتضمن في ذاته خيراً أو شراً إن لم يكن بنسبة التأثير الذي يثيره في »
« الروح . ولقد اعتزمت في النهاية أن أبحث عما إذا كانت هناك مادة يصح اعتبارها »
« خيراً حقيقيًا يسهل تناوله وتستطيع النفس أن تتأثر بواسطته بعد أن تزهد في كل »
« شيء آخر : خيراً تكون ثمرة اكتشافه أبدية والاستمتاع به أبدية من السرور »
« المستمر السامي ، قلت بأني قد اعتزمت في النهاية : حقًا لقد كان يخال لأول وهلة »

« أن من الطيش وضعف التمييز محاولة فقد شيء موثوق به في سبيل الحصول على »
« شيء غير مؤكد . لقد كنت أتأمل جدّ التأمل ما هي الفوائد التي يمكن استخلاصها من »
« الشرف والثروة وأنه كان يجب عليّ أن أكف عن السعي وراء تلك الفوائد إذا أنا »
« شئت أن أقف عنايتي على السعي وراء مشروع آخر جديد : فإذا كان هذا المشروع »
« يتضمن السعادة التامة كان لا بد لي أن أعدل عن تملكها ، وبالعكس إن لم يتضمن »
« هذا المشروع تلك السعادة فلا ريب في أن تعير اهتمامي على تلك الفوائد وتمسكي بها »
« يجعلني أفقدها كذلك . إن نفسي إذن كانت قلقة لتعلم إذا كان في الامكان ، وبطريق »
« المصادفة ، اشادة حياة جديدة ، أو على الأقل الحصول على يقين بامكان حدوث ذلك »
« بدون تغيير في نظام حياتي القديم أو في سيرها العادي . ولقد طالما حاولت ذلك عبثاً . »
« إن المصادفات التي يكثر وقوعها في الحياة ، تلك التي يعتبرها الرجال بمثابة أسمى »
« أنواع المتاع ، كما يتبين ذلك من جميع أعمالهم ، ترجع في الواقع إلى ثلاثة أمور : »
« الغنى والشرف ولذة الحواس . وإذن فكل أمر من تلك الأمور الثلاثة يلهي »
« العقل عن كل فكرة خاصة بأي نوع آخر من أنواع الخير . ففيما يختص باللذة »
« فان النفس تتعلق بها كأنها وجدت نوعاً من الخير تستريح إليه . فهي إذن محرومة »
« إلى أبعد مدى ، من التفكير في أي خير آخر . ومن جهة أخرى فإن اللذة يعقبها »
« حزن عميق . وهذا الحزن إن لم يقف تيار الفكر ، فإنه يعكر صفوه ويضعفه . »
« وأما السعي وراء الشرف والثراء فإنه لا يقل تأثيراً على النفس . فأما السعي وراء الثراء »
« خصوصاً إذا كان البحث عنه لذاته ، فلأن المرء في هذه الحالة ، يحله مكانة الخير »
« الأسمى . وأما السعي وراء الشرف فلأنه يستحوذ على العقل ويتفرد به لأنه »
« لا يمكن التخلي عن اعتباره شيئاً طيباً في حد ذاته واعتباره بمثابة الغاية التي تؤول »
« اليها جميع الأعمال . »

إن المرء ليشعر ، في تلك السطور الملتهبة التي تعمدنا اقتباسها من كتابه « اصلاح الادراك العقلي » ، بالمأساة المكتئبة ، والنزاع الداخلي عند هذا الفيلسوف الذي يجتهد في أن يمهد لنا طريق السعادة النادر . فالغنى والشرف والمجد ولذة الحواس لا يجب أن تشغل كل

تفكير الحكيم . إن الإفراط فيها مضر سيء العاقبة . على أن سبينوزا ، إن كان قد عبر بعد تفكير طويل عميق « شراً أكيداً في سبيل خير محقق » فإنه لا ينحاز إلى تشاؤم « سفر الجامعة »[1] الذي يعد جميع هذه الأشياء زهواً باطلاً .

ويستطرد سبينوزا : « أما إذا سعى المرء وراءها باعتبارها وسائل ، فإنها لا تتجاوز حدّاً محدوداً وإنها بالعكس ، تساعد كثيراً على بلوغ الغاية » .

ومع ذلك فإن سبينوزا يرمي إلى الحصول على تلك الطبيعة الممتازة ، ويعمل ما في وسعه كما كتب ، لكي يحصل عليها كثيرون معه ، إذ أنه كان يعد العمل على أن يعلم الكثيرون تماماً ، ما هو واضح في نظره ، جزءاً من غبطته ، بحيث يتفق إدراكهم العقلي ورغبتهم تمام الاتفاق مع إدراكه العقلي ورغبته . إن ما يهم في نظر سبينوزا هو « إمكان التفكير جديّاً » وهذا يسمح لنا أن نتطلع إلى الحب الذي يتجه إلى شيء سرمدي لا نهائي ، ويغذي النفس بفرح طاهر « فرح لا تشوبه أية شائبة حزن أو شجو ، مرغوب فيه إلى أبعد مدى وأهل لأن يبحث عنه الإنسان بكل قواه ».

فبعد أن يمعن النظر في الصيغ المتعلقة بالإدراك الحسي « المكتسب بالسمع أو بواسطة دليل اتفاقي مطابق التصرف » و« الإدراك الحسي » المكتسب بالخبرة الوهمية ، أي بالخبرة التي لم يحددها الإدراك العقلي و « الإدراك الحسي حيث جوهر الشيء يستنتج من شيء آخر » و« الإدراك الحسي الذي يفهم فيه الشيء من مجرد جوهره أو بمعرفة سببه المقبل » فإن سبينوزا يلاحظ أن « الإدراك العقلي ، بقوته الطبيعية ، يتكوّن من وسائل فكرية يضاعف بواسطتها قواه لينجز أعمالاً فكرية أخرى » ومن تلك الأعمال الأخيرة يستخلص « وسائل أخرى أي القوة لاستطراد بحثه والسير فيه إلى الأمام ، ويستمر هكذا في التقدم والنجاح حتى يدرك قمة الحكمة » .

إن الفكرة الصحيحة ، كما يراها سبينوزا ، هي شيء يختلف عن الشيء الذي يسبب الفكرة : فالدائرة شيء وفكرة الدائرة شيء آخر . إن فكرة الدائرة ليست شيئاً ذا محور

---

(١) سفر من أسفار العهد القديم : يجيء في أوله ... باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس الخ

ومحيط كما للدائرة ، وبالمثل فإن فكرة الجسم ليست هي الجسم بالذات . وحيث أن الشيء في ذاته يختلف عن الفكرة، فسوف تكون في ذاتها شيئاً يمكن معرفته؛ أي أن الفكرة مادامت ذات جوهر صريح ، فيمكن أن تكون موضوع جوهر آخر واقعي . وهذا الجوهر الآخر الواقعي يمكن أن يصبح بدوره ، إذا اعتبر لذاته ، شيئاً حقيقيّاً يمكن إدراكه ، وهكذا إلى ما لا نهاية » . إن الفكرة الصحيحة في ذاتها تستلزم اليقين فهي مرتبطة « بالجواهر الواقعية للأشياء » وتلك الجواهر يفهمها الادراك العقلي فهماً تامّاً . هنا تتجلى غرابة المذهب الاسبينوزي . إن العقل، ما دام متمتعاً بالأفكار الحقة ، لم يعد خاضعاً لأي شك . وسبينوزا يبتعد ، عند هذه النقطة ، عن قواعد ديكارت . ويلح بأن الفكرة « يجب أن تتفق تمام الاتفاق مع الجوهر الصريح المناسب لها » بحيث « أن عقلنا ، لكي يستعرض أمامنا منظراً من مناظر الطبيعة ، يجب أن يفرق لنا بين جميع أفكاره وبين الفكرة التي تمثل منشأ وأصل الطبيعة بأسرها ، بحيث تكون تلك الفكرة كذلك منشأ الأفكار الأخرى » . وإذا وقع ، فيما بعد ، « أحد السفسطائيين في الشك بالنسبة للحقيقة الأولى بالذات وبالنسبة لجميع الحقائق التي نستنتجها تبعاً لمبدأ تلك الحقيقة الأولى الأساسي ، فان هذا الشخص ، كما يقول سبينوزا بغير تردد ، إما أنه يتكلم ضد ضميره ، وإما وجب علينا الاعتراف بأنه توجد طائفة من الرجال عميت بصيرتهم وعقولهم تماماً ، سواء أكان ذلك منذ ولادتهم أم أن الاعتبارات ، أي بعض العوارض الخارجية ، قد صيرتهم كذلك » .

على أنه لكي يمكن تمييز الفكرة الصحيحة الحقة ، يجب ، تبعاً لمنهج سبينوزا ، تجنب الفكرة الكاذبة والفكرة الصورية والفكرة المريبة . وكذلك فيما يتعلق بوجود الله أو أي كائن عليم بجميع الأشياء « فان هذا الكائن لا يستطيع مطلقاً أن يختلق أية بدعة كاذبة » ويقول سبينوزا « انني لمجرد علمي بأني كائن ، لا أستطيع أن أختلق بدعة كاذبة بالنسبة لوجودي أو عدم وجودي . وإني لا أستطيع كذلك أن أتخيل فيلاً يمر من ثقب إبرة ، ولا عندما أعرف طبيعة الله ، أن أتصوره باعتباره موجوداً أو غير موجود ، ويجب التسليم بمثل ذلك فيما يتعلق بالخيال الذي تتعارض طبيعته مع الوجود . وإننا عندما نعرف طبيعة الجسم لا يمكننا أن نختلق فكرة ذبابة لانهائية ، أو عندما نعرف طبيعة الروح ، فإننا لا نستطيع

كذلك أن نختلق فكرة روح مسطحة الشكل ، وإن كنا نستطيع أن نعبر بالألفاظ عن أي شيء نريد » . وعلى هذا الاعتبار « فالعقل الذي يعكف على شيء مختلق وبطبيعته باطل ليفحصه ويعرفه ثم يستنتج ما يجب استنتاجه طبقاً للنظام العادل ، يجعل بطلان هذا الشيء واضحاً جليّاً » .

إن سبينوزا يقرر بأن « الفكرة الحقة » لا تميز فقط عن الفكرة الباطلة بإشارة خارجة عن جوهر الشيء ولكنها تميز بصفة خاصة بإشارة داخلة في جوهر الشيء . فإذا فرضنا مثلاً أن أحد العمال قد فكر في عمل منظم ، فسيان لم يوجد هذا العمل أو أنه لن يوجد مطلقاً ، فهذا لا يمنع أن تكون الفكرة صحيحة وأن تلك الفكرة تظل كما هي سواء وجد ذلك العمل أو لم يوجد » . إن الفكرة الحقة ، في نظر سبينوزا ، هي « تلك التي تتضمن بصفة ظاهرة جوهر مبدأ لا علة لوجوده ولكنه معروف لذاته وبذاته » . أو بعبارة أخرى : أن صورة « الفكرة الحقة يجب أن تكون داخلة في تلك الفكرة حتى بدون علاقة بسواها وهي لا تسلم بأن الموضوع يعتبر كعلة ، ولكن يجب أن تكون تابعة لقوة الادراك العقلي وطبيعته بالذات » . ويلاحظ سبينوزا فوق ذلك بأننا إذا أردنا أن نصل الى الحقيقة فإن الواجب يدعونا الى عدم استخلاص نتائج من تصورات مجردة لأننا نتعرض الى الخلط « بين ما هو في حدود الادراك العقلي وبين ما هو في حكم الحقيقة » . إن الخطأ « ناشيء عن عدم معرفة العناصر الأولية للطبيعة بأسرها ، ويبنى ذلك أن الانسان يتصرف بغير نظام ويخلط الطبيعة بالقواعد المجردة ، وحتى ولو كانت صادقة ، فيشوش بذلك على نفسه ويقلب نظام الطبيعة » . إن أصل الطبيعة يرجع إلى الجوهر الذي « يجب أن يكتسب من الأشياء الثابتة الخالدة وكذلك من النواميس المنتظمة التي تحدث جميع الأشياء العرضية ، وتنسق بموجبها المتبدلة ، أن هذه الأشياء العرضية المعرضة للتغيير تخضع تمام الخضوع للأشياء الثابتة ، ولا يمكن لهذه الأشياء العرضية أن توجد أو تعرف بدون الأشياء الثابتة » .

وينتج عن ذلك أن أسمى صورة للمعرفة في نظر سبينوزا هي التي ترجع الى الأصل — خصوصاً عندما يدعو الى الأشياء العرضية المحسوسة وننسى الى التصورات المجردة — الى النوع الثالث ذلك الذي يسميه العلم الايجابي . ان هذا النوع من المعرفة « يبدأ بالتفكير

التام بالجوهر القاطع لبعض خصائص الله ويتحول الى معرفة جوهر الأشياء معرفة تامة ».

ويرى سبينوزا ان الادراك الحسي للاشياء « في صورة الأبدية » هو الذي يؤلف هيكل الفلسفة . وهو يقول في ذلك : « ان ادراك الأشياء في صورة من الخلود هو إذن أدراك الأشياء من حيث انها تدرك ذاتها كأنها حقيقية بفضل جوهر الله أعني ان هذه الأشياء تشمل الوجود بفضل جوهر الله. وهكذا فان روحنا ، من حيث انها تُدرَكُ لذاتها وتُدرِك الأشياء بنوع من الخلود ، تتمتع بمعرفة الله وتعرف أن تكون ».

ويتضح من تلك الاعتبارات ان التأليف الاسبينوزي المندمج بطبيعته بتأمل داخلي وممتزج بالأشياء المحسوسة والأشياء الملهمة ، يكوّن جوهراً كاملاً حيّاً فعّالاً لأنه لا يخرج عن كونه رمزاً للحقيقة ومن نوعها . انه يقصي عن عيطه العلل النهائية ما دام لا يكف عن خلق ذاته بذاته أو عن التحرك داخليّاً . فحرية الفكر والعقل البارزة في سبينوزا هي التي تهيئنا الى تفهم « فلسفته » وهي الفلسفة « الصحيحة » كما تُمدنا الى تفهم مؤلفه الرائع « الأخلاق » الذي نظّمه طبقاً للقواعد الهندسية التي طالما نوّه عنها في كتابه « إصلاح الادراك العقلي ».

٢ — الله

لقد تبين لنا ان سبينوزا اعترف لنا بصراحة تامة ، في الصفحة الاولى من كتابه « اصلاح الادراك العقلي » بعلة قلقه ، وهذا ما كان يثير فيه الرغبة في الوصول الى حياة سعيدة . ولا يمكن اكتشاف تلك الحياة إلاّ اذا أدركنا بصفة تامة ، معنى « الحق » على صحته وخصوصاً أصل الأشياء . فعندما نكوّن فكرة واضحة محدودة ، عن « الكل » وعندما نصل الى أعماق الكائن ، وعندما نستطيع بفضل جهود مضنية ، أن نميز « بأعين الروح » ذلك الكائن السرمدي اللانهائي غير الجزأ والكائن بغير كائن ، عندما يتم لنا ذلك إذ ذاك لا يكون هناك داع لوجود مثل هذا القلق . لا شك في أن الوصول الى تلك الطريق لا يخلو من عناء كبير . وقد توقع سبينوزا ذلك حيث يقول : « إذ كانت الطريق التي أوضحتها والتي تقودنا الى ذلك ، محفوفة بالمتاعب الشاقة فليس السير فيها بأدون ، فتلك الطريق

تستلزم ذكاء روحيّـاً عظيماً وهذا الذكاء في موضوعه يعد من النظام الالهي .

وهكذا فان سبينوزا ، بعد أن يبين الطريقـة لادراك الفكرة لحقة الكاملة يقدّم لنا عقب ذلك مباشرة أعمق نواحي علمه بما وراء الطبيعة وهي الناحيـة التي تتناول البحث في الكائن في ذاته وتتعلق بالكائن الذي يدبر كل شيء وبالله وبالكون وتتطلب أوفر قسط من التأمل العميق .

وإذن فان سبينوزا يشرح لنا معنى الكائن الذي يدبر كل شيء بما يأتي :

« إني أعني بالجوهر ما كان بذاته ويُدرك من ذاته . أي أن ادراكه لا يحتاج الى إدراك شيء آخر يجب أن يكون مكوّناً منه » .

«والله ، ذلك الكائن اللانهائي ، ليس إلاّ جوهراً مؤلفاً من خصائص لانهائية تعبر كل خاصة منها عن جوهر أبدي ولانهائي » في تفسير الجوهر يوجد معنى الكل ومعنى الكون الاسبينوزي .

ان الجوهر الذي يفرض في ماهيته الثبات وعدم التغير كما يفرض الخلود لهو عبارة عن طبيعة « يهوه » الأصلية . « أنا الكائن الكائن » . ولو ان سبينوزا يستعير تلك العبارة من الفلاسفة المدرسيين ، إلاّ انه في الواقع يدعم بتلك العبارة « الادراك العقلي عند قدماء العبرانيين » . ان الجوهر هو الذي يعتبر محور علمه بما بعد الطبيعة في نظره . انه مفرد إذ لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران من طبيعة واحدة أو من خاصة واحدة » . انه سبب في ذاته أي ان « ماهيته تشمل الوجود حتماً » أو بعبارة أخرى ان طبيعته هي أن يوجد ثم انه « لا نهائي حتماً » . وبهذا المعنى فان الله واحد فرد لأنه لا يوجد « في الطبيعة سوى جوهر واحد . وهـذا الجوهر لانهائي على الاطلاق » وبمعنى أيضاً « ان كل ما هو كائن ، كائن في الله ولا يمكن لشيء بغير الله أن يوجد أو يُدرك » ان الله يعمل « بمجرد ضرورة طبيعته : انه السبب الوحيد الحر » انه سبب كائن فعّال وليس سبباً لتحويل الأشياء من شيء الى شيء . وزيادة على ذلك فان الله « ليس سبباً فعالاً في الوجود فقط ، ولـكنه كذلك في ماهيـة الأشياء » . فمن ضرورة طبيعته الالهيـة « يجب أن تشتق أشياء لا سبيل الى حصرها في أشكال لا يمكن حصرها ، اعني كل ما يمكن أن يقع تحت ادراك عقلي لانهائي » .

ان هذه البيانات المختلفة التي تميز المؤمن المفرد أو الله بطريقة قاطعة لصادرة عن تركيز عقلي عميق وتفكير طويل . ان سبينوزا لا يكتفي بالاشارة اليها أو شرحها في شكل مبادىء أو تفسير أو عروض ، فهو يبرهنها بدقة نادرة مستعيناً على ذلك بالمنهج الهندسي الذي تكاد تكون دقته المنطقية الصارمة معصومة عن الخطأ .

ان الكل ، الذي يلقب بالله ، يفرض ، في نظر سبينوزا ، وجود حقيقة خارجية ، وتمسكاً صارماً في القدرية وفي القوة الكامنة التي لا تكف عن العمل . لم يجد فيلسوف لاهاي عناء كبيراً في أن يحارب — في كثير من اللباقة — مختلف الأغلاط الخاصة بالادراك التام لأصل الأشياء . وهذه النقطة المختلفة ناشئة عن عدم فهم مبدأ فهماً صحيحاً تاماً ، أو عن ذكاء محدود قليل النمو عاجز عن التوغل في ميكانيكية الكل . ان الرجال بطبيعتهم يجنحون الى الحذر والخوف وقلّ أن يذهبوا في تفكيرهم الى مدى أبعد مما يسلم به المنطق فلا يتخطون درجة المعقول على حد تعبير ليفي بروهل ، فهم في حاجة الى كائن شديد البطش قوي العزيمة على أن يكون كائناً محسوساً شبيهاً بهم يمكن تمييز أعماله الى حدٍّ ما . وأن
٥ يكون في مكنته أن يأتي العجائب ويصنع المعجزات وأن يظهر شفقته بكرمٍ وسخاء وأن يقوم بأودهم ويعد حاجتهم وأن يكلأهم برعايته ويذود عنهم ويحميهم من غائلة الوحوش الكاسرة وآفات الطبيعة . وفي مستوى أرق فهؤلاء الرجال يدهشون حيال نظام الأشياء وحيال تركيب أعضائهم التي تدل بأجزائها المتناسقة على وجود صبغة عقارية للعلة الغائية . وان تلك العلة تتخذ في نظرهم شكلاً هندسيًّا متناسق الأجزاء والمقاطع مصدره الله الذي ينحصر اهتمامه في تبسيط الحياة وما تحويه من الأشياء وجعلها لطيفة مستحبة . ولكن سبينوزا يضرب ضربة قاتلة ذلك الاله الشخصي المخلوق على صورتنا والناشىء عن تصورات مخيلتنا المحمومة لأنه يرى في ذلك شبهاً بمذهب القائلين بالتجسد الالهي . انه يعلو على تلك الخيالات الوهمية والمخيلة العادية . ان ربّ سبينوزا لا يفرض الخير ولا الشر . ان ميزته الأصلية والثابتة تنعكس في ميكانيكا دائمة الحركة وفي كل ما تحويه الطبيعة . انه يتحد بذاته مع الطبيعة . لم يعد يبق في هذا القياس موضع للفرض أو للابتهال الى رحب رحيم أو لعلة الغائية ما دام وجوده يفرض وجود السلطة والقوة وما دام لا يكف عن العمل ، أو الطرد

الفرد ما دام الخلود مندمجاً بالجوهر الكائن بذاته الأبدي اللانهائي : ذلك الفرد لا يمكن اعتباره خالداً إلاّ من حيث انه يؤلف عنصراً متحداً مع الجوهر ، ما دامت ماهية هذا الفرد تجيء من قوة الادراك اللانهائي أو القوة المدركة في الله وهي ضرب من الفكرة لا حدّ له ولا غاية ، كما ان جسمه يجيء من الامتداد بواسطة نواميس الحركة .

وقد كتب سبينوزا : « لا بدّ أن جميع الأشياء قد تسلسلت من طبيعة الله التي يفرض فيها بأنها موهوبة ، وانها قد تعينت بالضرورة التي لطبيعة الله الى الوجود وإحداث بعض الآثر بطريقة خاصة » .

أو بعبارة أخرى كما يكتب الى أولدنبرغ : « اني لا أخضع الله الى أي نقد أو أوجه له أي طعن ولكنني أدرك الأشياء باعتبار انها مرغمة على السير وراء طبيعة الله » .

ان سبينوزا يستخلص معنى الحياة من طبيعة الله . فهي « القوة التي بموجبها تستمر الأشياء في المحافظة على كيانها » وتلك القوة ملازمة لله حيث انها « ليست إلاّ ماهيته » . وبما أن « تلك القوة تمتاز عن الأشياء بالذات ، فاننا نقول بكل وضوح ان الأشياء بذاتها تعيش وتحيا » .

ولكن هل الأشياء مخلوقة ؟ ان سبينوزا يتبع في كلامه عن هذه النقطة نفس مبدأ خلود الله ، فيرى ان الخلق ، عملية لا تشترك فيها أسباب غير العلة الفعالة ، أي أن الشيء المخلوق هو الشيء الذي لا يفرض لوجوده وجود شيء قبله غير الله . وهو يكتب بهذا المعنى الى أولدنبورغ : « ان الرجال لم يخلقوا ولكنهم قد تناسلوا وان أجسامهم كانت توجد قبل ذلك وان كانت مصنوعة على أشكال غير هذه » . جميع الأشياء فيما عدا الله ، كائنة دائماً بواسطة قوة الله أو جوهره » . وجاء في كتاب « الاخلاق » : توجد في الله منذ الأزل فكرة عن كل جسم بشري .

وهكذا فان وحدة الجوهر تفرض فهماً وإدراكاً تامّاً ، فهي العنصر الذي يتجلى في كل صفة . « ان نظام الأفكار وتقاربها هو نفس نظام الأشياء وتقاربها » . غير ان الذي تألم له معاصرو سبينوزا ، فيما كتبه عن وحدة الجوهر ، هو قوله بأن « الامتداد هو صفة الله » . أو بعبارة أخرى ما يقوله من أن الله قابل لأن يندمج مع جسم وبذلك يكون قابلاً للتجزئة

والانفعال . ولكن سبينوزا يلاحظ على ذلك انه « إذا أريد فحص المسألة روّي بأن جميع هذه النتائج المستحيلة التي يريدون أن يستنتجوا من ورائها أن الجوهر الممتد نهائي لا يشتق مطلقاً مما يظن بأنه كمية لانهائية ولكن مما يظن بأن تلك الكمية اللانهائية قابلة للقياس ومؤلفة من أجزاء نهائية ، فلا يمكن إذن أن يستنتج من هذه النتائج المستحيلة إلا أن الكمية اللانهائية ليست قابلة للقياس ولا يمكن أن تتألف من أجزاء نهائية » . ان « الجوهر الجسمي، من حيث هو جوهر، لايمكن أن يجزأ » . وبعبارة أخرى ، يقول سبينوزا « إذا انعدم جزء واحد من المادة فكل الامتداد لا يلبث أن يتلاشى ». في نظرة المادة وحدة تذكر بالألوهية عند العبرانيين ، تلك الألوهية الموضحة « بالزوهار » حيث المادة والادراك العقلي تصيران الى عنصر واحد . ان المادة لاتفترض ، من تلك الناحية ، الا نوعاً من نظام روحاني ، ولذلك يقرر سبينوزا بأن « الامتداد اللانهائي والفكرة .. مجتمعان مع خاصيات أخرى لانهائية ليست الا أعراضاً للكائن الفرد الأبدي اللانهائي الموجود بذاته . وانها تؤلف من كل ذلك كما تقدم ، فرداً ووحدة، وتلك الوحدة ليس في الامكان تصور شيء ما بدونها » ثم يضيف ذلك الشرح الواضح : « ان الدائرة الكائنة في الطبيعة وفكرة الدائرة الكائنة أيضاً في الله، هي شيء واحد بعينه يفسر بواسطة خصائص مختلفة ، وهكذا سواء أكنا ندرك الطبيعة تحت صفة الامتداد أو تحت صفة الفكرة أو تحت أية صفة أخرى ، فاننا نجد نظاماً واحداً بعينه أو نفس اقتراح الاسباب بعينه، أو بمعنى أوضح فاننا نجد أن نفس الاشياء تتعاقب . فاذا كنت قد قلت ان الله هو السبب في فكرة ، في فكرة الدائرة مثلاً باعتبار انه فقط شيء مفكر ، فان داعي الوحيد الى مثل هذا التعبير هو أنه لا يمكن ادراك الكائن الحقيقي لفكرة الدائرة الا بواسطة صيغة أخرى في التفكير تعتبر بمثابة السبب القريب لتلك الصيغة وانه لا يمكن ادراك تلك الصيغة الجديدة بدورها الا بواسطة صيغة أخرى كذلك وهكذا حتى اللانهائي ، بحيث انه طالما اعتبرت الاشياء صيغاً للتفكير صار من الواجب علينا أن نفسر نظام الطبيعة بأسرها أي اقتراح العلل بصفة الفكرة وحدها ، واذا اعتبرت هذه الاشياء صيغاً للامتداد فان نظام الطبيعة بأسرها يجب أن يفسر كذلك بصفة الامتداد

وحدها وهكذا أعني الصفات الأخرى . ولذلك فان الله بصفته مكوّناً من صفات لا نهاية لها هو في الحقيقة السبب في كيان الأشياء كلها كما أنها كائنة بذاتها » .

والى جانب هاتين الصفتين ، الفكرة والامتداد ، اللتين يميزان بوضوح مذهب وحدة الوجود عند سبينوزا ، يجب أن يضاف مظهر آخر له أهمية عظيمة في فكرته وهو الخاص بالطبيعة الفعالة الخالقة والطبيعة المنفعلة المخلوقة . أما الأول فانه يعني بها « ما هو كائن في ذاته ويدرك بذاته أو بعبارة أخرى صفات الجوهر التي تدل على ماهية أبدية لانهائية أو الله طالما انه معتبر بمثابة سبب حر » . والطبيعة المنفعلة المخلوقة فان سبينوزا يعني « كل ما هو ناشيء من ضرورة طبيعة الله أو بعبارة أخرى من طبيعة كل صفة من صفاته أو أيضاً جميع صيغ صفات الله ما دامت تعتبر كأشياء موجودة في الله ولا يمكنها ، بدون الله ، أن توجد أو تدرك » .

وهكذا فان الادراك العقلي أو الفعل ، سواء أكان محدوداً أو لانهائياً ، وكذلك الارادة والرغبة والحب وغيرها ، يجب أن ترجع الى الطبيعة المنفعلة المخلوقة لا الى الطبيعة الفعالة الخالقة ، وبعبارة أخرى فان الطبيعة الخالقة هي خلاصة جوهر « الكل » أو « الكائن » الأصلي وما ينشأ عنه .

وبهذا المعنى فان ما ينتج من الطبيعة المنفعلة المخلوقة ، مهما كان فعالاً ، هو في الحقيقة منفعلاً بالنسبة للعنصر الأساسي للطبيعة الفعالة الخالقة التي تحتم القوة الفعالة البحتة . ان الجوهر يتساوى هنا مع الطبيعة . ان الطبيعة المخلوقة ، على عكس الطبيعة الخالقة ، هي التي ترتبط بالطبيعة المنفعلة العامة أو الأعراض أو المخلوقات (ما تحتوي عليه الطبيعة من أشجار ومياه وكل الأشكال الخارجية لكائناتها) التي « تتعلق رأساً بالله أو التي خلقت بواسطته في الحال » والتي « لا تعرف منها أكثر من اثنين وهما : الحركة في الطبيعة والادراك العقلي في الأشياء المفكرة » ، وكلاهما « يظل ثابتاً لا يتغير وأبدياً » . ولهذا السبب كتب سبينوزا الى أولدنبورغ ان « الله هو السبب الفعال لجميع الأشياء » .

وهكذا نرى أن الغرض من تلك الفروقات المختلفة هو أن تعطينا فكرة واضحة عن أدق نقطة في علم ما بعد الطبيعة عند سبينوزا . إن جميع الاجزاء الخاصة ، عبداً ، مرتبطة

بعضها ببعض. ولا يمكن فهم الطبيعة البشرية في مختلف علاقاتها بالكائنات دون الوقوف سلفاً على أصل الأشياء و « الوحدة السامية » التي تستلزم وجود وفرة العدد أي وجود الرحم العزيز النسل. إن الله، كما يراه سبينوزا هو ذات «النظام الثابت الذي لا يتغير للطبيعة أو بعبارة أخرى، تسلسل الأشياء الطبيعية وتناسقها». انه « لا يوجد أي سبب، خارج عن الله أو في الله، يدفعه الى العمل إن لم يكن كمال طبيعته الذاتية ». ولم يجد سبينوزا أي عناء، وقد بدأ من الذات الالهية أو من ذلك « الكل » في أن يبين لنا مما تتألف منه طبيعة النفس في مختلف ظواهرها المادية.

٣ – الطبيعة البشرية

بعد أن خبر سبينوزا الكائن في ذاته ولمس بأصبعه سر كيانه فانه ينزل عن القمة التي كان واقفاً عليها ، ويترك لحظة معبد الجمال والنور الساطع ، حيث يمكن لعين الانسان أن تتأثر وتتأمل ، لكي ينظر عن كثب فيما اذا كانت جميع الأشياء تتناسق وترتبط ، وإذا كانت الأجزاء توازي الكل . وفيما اذا كانت الطبيعة المنفعلة المخلوقة تتولد فعلاً من الطبيعة الفعالة الخالقة . وبالاجمال فيما اذا كانت الالوهية عامة شاملة لجميع الكائنات وموجودة في كل مكان على حد ما كان يراها هو بنظرته العميقة النادرة . وبدأ إذن بدراسة الكائن المحسوس الذي يعد أهم الكائنات بالنسبة للكائنات الأخرى ، وهو الرجل الذي هو قطعة من لحمه ، والذي هو أقرب الكائنات من الطبيعة الالهية من ناحية إدراكه العقلي . وفي النهاية قال سبينوزا : « إن الرجل يفكر » فما هي الفكرة ؟ إن الفكرة « صفة من صفات الله أو بعبارة أخرى ان الله شيء مفكر » . انها « تعبر عن ماهية جوهر الله الأبدي اللانهائي » . « إن النفس البشرية معرفة تامة لماهية جوهر الله الأبدي اللانهائي » . ولكن لا يجب أن ننسى أن للرجل جسماً أو جسماً . فهلاً تكون هناك ذاتان متباينتان ، الروح والجسد ، شبيهتان بالصفتين الفكرة والامتداد اللتين تحدثنا عنهما فيما سبق ؟ لقد رأينا كيف أن سبينوزا يذلل الصعوبة بشأن الامتداد . وهنا أيضاً سيبدو فيلسوف لاهاي الالتباس الخاص بالجسم . فهو يقول عنه « انه صيغة تعبر عن ماهية جوهر الله » . حيث أن ماهية الجوهر هذه ترتبط « بالشيء الممتد بكيفية مؤكدة ومحددة » وبتعبير آخر ، « ان الغرض من الفكرة التي تؤلف النفس البشرية هو الجسم أعني نوع من صيغ الامتداد الكائن بالفعل وليس شيئاً آخر » .

إن النفس البشرية صفة لله لان الله شيء مفكر ، والجسم البشري هو الله لان الله شيء ممتد وزيادة على ذلك فان المعرفة أو الفكرة في النفس البشرية ملازمة لله ، انها تتعلق « في

الله بنفس الطريقة وتتعلق بالله بنفس طريقة الفكرة أو معرفة الجسم البشري ».

وهكذا فان الطبيعة البشرية تؤول إلى ماهية جوهر المجموع بواسطة الأعراض التي ترتبط رأساً بصفات الله. لا حاجة في علم ما بعد الطبيعة عند سبينوزا إلى أبراز المادة والعقل إذ أنه لا يعقل أن الفكرة ترتبط بجزء من المادة، أو أن النفس، كما يريد ديكارت، تكون مرتبطة بالغدة الصنوبرية. ان الطبيعة البشرية لا تحتمل مزيجاً غير مرتبط وغير معين، فهي لا تقوم إلا على وحدة داخلية. انه لا توجد في الرجل قوتان عاملتان مستقلتان. إن النفس تبدأ وتنتهي مع الجسم وعلتها قائمة بعيداً عنها، في أعراض أخرى محدودة للفكرة مطابقة لأعراض الامتداد التي هي علل الجسم. إن عرض الفكرة التي تتألف منها النفس البشرية هو الجسم أعني عرضاً من أعراض الامتداد الموجود في الفعل». وسبينوزا يوضح ذلك بعبارات أوضح: « أما فيما يتعلق بالنفس البشرية فإنني أعتقد أيضاً بأنها جزء من الطبيعة: أعتقد حقاً أنه توجد في الطبيعة قوة تفكير لانهائية، وان تلك القوة تحوي شامرياً في لانهائيتها الطبيعة بأسرها حيث أن الأفكار الخاصة التي تؤلفها ترتبط بعضها بنفس الكيفية التي ترتبط بها أجزاء الطبيعة التي كوّنتها تلك القوة المفكرة — . والى جانب ذلك فإنني أعتبر النفس البشرية كأنها نفس تلك القوة التفكيرية ليس باعتبارها لانهائية وتدرك الطبيعة كلها، ولكن باعتبار أنها تدرك فقط شيئاً نهائيّاً هو الجسم البشري: هكذا أدرك النفس البشرية كأنها جزء من الادراك اللانهائي ».

ومع ذلك كله فإن سبينوزا يضيف، فيما يتعلق باتحاد النفس بالجسم، « انه ليس في مقدور أحد أن يكون فكرة تامة أعني واضحة » دون أن يعرف قبل ذلك طبيعة جسمنا. فلهذا الجسم ملامح مشتركة عند أشخاص آخرين يحبون ويعيشون جميعاً بدرجات مختلفة وإذن « فكرة كل شيء، أيّا كان هذا الشيء، كائنة في الله، والله هو سبب تلك الفكرة بنفس الكيفية التي هو السبب فيها في فكرة الجسم البشري. وهكذا كل ما قلناه عن الجسم البشري يجب حتما أن يقال هنا عن فكرة كل شيء مهما كان ». وعلى هذا الاعتبار بدت الطبيعة بأسرها، في نظر الفيلسوف، كأنها فرد واحد « تتغير أجزاؤه، أعني جميع الأجسام التي تكوّنه، إلى تغيرات لانهائية دون أن يحدث أي تغيير في الفرد بأكمله ».

ونلاحظ أيضاً أن جميع خصائص النفس تتفرع من ذلك التفسير : « النفس هي فكرة الجسم » والفكرة ، من حيث أنها عرض من التفكير [طبيعة الفكرة لا تشمل بأي حال أمور الامتداد] لا تتألف من « رسم صامت على لوحة » . إن الفكرة ، وهي عرض من صفة إلهية ؛ أي خارجة عن النفس ، تؤيد من نفسها وجود موضوعها ، « وتعززه ما دام هذا الوجود لم يستبعد بوجود فكرة أخرى : وليس الوضع هو الذي يجب أن يفسر ولكن هو النفي ، وهذا النفي يفسر نفسه بما فيه من تأكيد لما السبب الذي أدى إلى استبعاد الفكرة المنفية . وإذن ففكرة الجسم ليس انعكاس هذا الجسم ولكنها وضع وتأكيد وجوده في الفكرة . ثم إن هذه الفكرة مكونة أيضا كتكوين الجسم بعينه ، وفردية النفس ، مع اختلاف الادراك الحسي الذي تشتمل عليه تلك الفردية ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن طبيعة الجسم »

ومن جهة أخرى ، النفس باعتبار أنها عرض نهائي ، فإن فكرتها نحو ذاتها وفكرتها نحو الجسم وفكرتها نحو الجسم الخارجي كلها أفكار ثابتة لا تتغير . أعني أن النفس تجهل العلة أو السبب في هذه الأفكار . انها « لا تعرف الجسم البشري بعينه ، ولا تعلم بأنه موجود إلا من أفكار العواطف التي يتأثر بها الجسم » وبعبارة أخرى ، ان النفس تعرف الأجسام الظاهرة ما دامت تحدث تأثيراً على جسمها هي بالذات ، وهكذا يصير مفهوماً بأن الادراك الحسي لهذه الأجسام الظاهرة موقوف على طبيعة جسمنا . إن الذاكرة أو التصور تنشأ عن استمرار التأثير . ويقول سبينوزا « اذا تصادف أن يتأثر الجسم البشري مرة بجسمين أو بأجسام كثيرة في وقت واحد ، فبمجرد ما تتصور فيما بعد أحد هذه الاجسام فانها ستذكر الاجسام الاخرى في الحال » .

ولكن الرجل ، في تلك الحالة ، بصفته كائنا نهائيًا وبصفته يخضع للمدة ، فانه لا يستطيع أن يفهم مجرى الطبيعة التي يخضع لها ، ولا أن ينفي الأعراض النهائية ، لأن تلك الأعراض في ذاتها مبهمة : « اننا لا نستطيع أن نعرف عن مدة الأشياء الخاصة الخارجة عنا إلا أنها كثيرة التغيير غير ثابتة » .

ولذلك فإن إرادة الرجل في نظر سبينوزا محدودة . وهو يقول : « لا توجد في النفس أية إرادة مطلقة أو حرة » . إن النفس مسيرة إلى إرادة هذا أو ذاك ، بسبب ، وهذا

السبب مُسيّرٌ أيضاً بسبب آخر، وهذا السبب الآخر مسيّر بدوره بآخر وهكذا إلى اللانهائي».

وبعبارة أخرى ، إن النفس لا تفرض أي حل أعني « أي تأكيد ولا أي نفي خارج عن التأكيد أو النفي الذي تحتوي عليه الفكرة باعتبار أنها فكرة » . فإذا كانت الارادة ، باعتبار أنها تفرض استمرار الفكرة في الضمير ، هي الرغبة التي هي «ماهية الرجل بعينها» فإن تلك الرغبة ليست في ذاتها وسيلة وجدانية . ليس من الضروري للغرائز ، التي تتعدد في جهود مبهمة متعددة ، أن تعمل بواسطة الرغبة . وكذلك فإن الضرورة ، التي تدير جميع الكائنات والتي تتحد بالطبيعة الإلهية ، لا تمنح أية حرية للرجل . على أن سبينوزا يسلم بالرجل الحر ولكن بمعنى أضيق ، عند ما « يعيش الرجل طبقاً لأوامر العقل » ، أو « أن يكون مسيراً بواسطة العقل وحده » . وإذن ، ذلك العقل يحتم ، في نظر سبينوزا ، المعرفة الثالثة ، وهي المعرفة التي تسمح «بمعرفة الله» أو « الفضيلة السامية » ، وسهولة فهم النفس بالنسبة لذاتها . إن الخطأ ، بحسب هذا المذهب ، لا يمكن أن يعزى إلا لعدم وجود الفكرة المطلقة ، فهي فكرة متغيرة غير ثابتة ، ما دامت لم تستبعد ولم تُنف بواسطة فكرة ثابتة غير متغيرة . والحقيقة ، كما يقول سبينوزا ، «إن الرجال يفكرون في نفس الشيء أو يفكرون في أشياء مختلفة ، بحيث أن ما يُظن بأنه خطأ أو ابهام في الغير ، ليس كذلك » . إن الخطأ من مستلزمات الكائن البشري ، وهو بغير ما شك يشبه الشهوة التي تعتبر من جهتها من ضروريات النظام الطبيعي . ولذلك فهو لا يحكم على الخطأ عند الرجل ولا يقبل أن يعزى هذا الخطأ ، كما يريده ديكارت ، إلى الإرادة البشرية . إنه يبين أن الطبيعة البشرية قد جعلت هكذا ؛ وانها آلية أو روحانية تقع تارةً في الخطأ وتارةً تبحث عن الحقيقة . وهكذا فإن معرفة إرادة حرة تعمل طبقاً لغاية ، ومعرفة الخير والشر ، ليست إلا وهمية غامضة في هذا المذهب الذي تنفي طبيعته الجوهرية وكليته كل فرض أو احتمال . لهذا السبب يبدو سبينوزا حليماً نحو بعض الأخطاء المثيرة ، التي لا تغتفر للرجل إذ أنه بصفته عاقلاً يكتفي بأن يلاحظ ويشاهد الناحية المذمومة من شهوة الفرد سواء أكانت تلك الشهوة سارّة أم ضارّة .

إن تلك الشهوة تظهر في التحليل الدقيق الذي يجريه سبينوزا — ذلك العالم الفذ فيما وراء الطبيعة وعلم النفس ، الماهر في استكشاف دخائل النفس وخلجاتها — سواء أكانت مادية

رقيقة أو عاصفة ثائرة — تلك الشهوة إذن تظهر في أشكال متنوّعة وفيرة ، تساعد على تكوين فكرة ثابتة جلية عن طبيعة الرجل الغريبة — إن هذا الرجل لا يجب اعتباره في الطبيعة بمثابة « دولة في وسط دولة » ، إنه غير خاضع للتصرف المطلق ، كما توهمه ديكارت . إن فضائله ورذائله مرتبة بقوّة الطبيعة المشتركة . ولهذا السبب لا يتردّد سبينوزا في معالجة عواطف الرجال وأعمالهم كما يعالج المهندسون المسائل الهندسية ، أي بتحكيم العقل بكل شدة ، كما لو كانت تلك العواطف والأعمال خطوطاً ومسطحات وجماد . إن الطبيعة هي بعينها في كل مكان ، « وفضيلتها ومقدرتها العملية واحدة ، وهي بعينها في كل مكان ، أي أن الشرائع وقوانين الطبيعة ، التي يقع كل شيء ويتحول من شكل لآخر ، هي واحدة دائماً وفي كل مكان ، ثم إن معرفة الطريق القويم لطبيعة الأشياء ، أيّاً كانت يجب أن يكون أيضاً واحداً وأن يكون هو بعينه ؛ وهذا أيضاً بواسطة شرائع الطبيعة وقوانينها العامة » . وإذن « فعاطفة الحقد والغضب والحسد وغيرها ، المعتبرة في ذاتها ، تخضع كبقية الأشياء المعجبية ، لنفس ضرورة الطبيعة وتدس فضيلتها » .

وإذ ذاك فإن سبينوزا ، بعد تفسير السبب الثابت الذي لا يتغير « وهو الذي يمكن فهم تأثيره أو معلوله بوضوح وجلاء بذاته » والسبب غير الثابت القابل للتغيير أو الجزئي « وهو الذي لا يمكن فهم تأثيره أو معلوله بذاته » يشرح ماهية الحب والحقد والفرح والحزن والغضب والشفقة والضراعة وغيرها . إن النفس البشرية خاضعة « عندما تكون غير عاملة إلى تغيرات كبيرة فتارةً ترتفع الى درجة كبيرة من الكمال وطوراً الى أقل منها » ، وتلك الشهوات تفسر لنا شعور السرور والحزن ، إن السرور ليس « الا شهوة تصل النفس بواسطته الى كمال أسمى » . والحزن « شهوة تمر بواسطة النفس الى كمال أقل » . وفي وسط هذا النظام الفكري ، فإن الرغبة التي « تتولد من الحزن او السرور أو الحقد أو الحب تسمو بقدر سموّ الشعور » .

ولكن الكائن ، من حيث أنه يقترب أو يبتعد من القوة الإلهية ، « فانه يرمي الى الاستمرار في كيانه ، ولا يمكن أن يتحطم الا بواسطة كائن آخر . إن النبات يتألف من ارتباطه المباشر . وهذا الارتباط بذاته يولد في أول المشاعر غير العاملة : كالجوع في نامم

وهو ماهية الرجل ، وفي النفس الرغبة وهي ليست الا تأييداً وميلاً ملازماً للفكرة التي تعد بدورها وضعاً للذات . وبهذا المعنى، فان المعلولات تؤثر على جسمنا سواء لتسهيل المجهود المستمرة في الكائن ، سواء « لتنكد عليه » : ومن ذلك ينتج شعوران « السرور » وهو فكرة (غير كاملة) زيادة الكمال في الجسم ، و « الحزن » وهو فكرة نقص كماله : إن « الحب » يتولد عند ما تضاف إلى فكرة السرور فكرة (غير كاملة) السبب الذي يظن أنه أوجد تلك الفكرة ، و « الحقد » يتولد في نفس الظروف عند ما يقترن الحزن بفكر السبب الذي أوجده » .

إن الحب والحقد يمكن أن يكونا موضع « تقلب » . إن الحقد الذي نشعر به نحو فرد مثلاً ، قابل لأن يتحول نحو أمة بأسرها . إن شرائع المخيلة التي توحي الينا صور الأشياء تحدث نفس المشاعر التي توجدها تلك الأشياء بعينها . ومن هذا ينشأ الأمل والخوف القائمان على أساس السرور والحزن . والأمل والخوف يصبحان بدورهما اطمئناناً ويأساً إذا كنا نشك في السرور والحزن في مستقبل الايام ، ومن هذا أيضاً ينشأ الارتياح والأسف . إن فعل المخيلة يمتد أيضاً إلى أمثالنا فاننا نشعر نحوهم بعطف أو شفقة ، « وهو الحزن الذي يشعرنا به حزن أمثالنا ، أو بالمباراة عند تحملنا صورة الرغبة الموجودة عند أحد أمثالنا على الشعور بنفس تلك الرغبة » . ثم إذا نحن قمنا بمجهود « لتصبح الكائنات المماثلة لنا شبيهة بنا ، أي لكي يشاطرونا أحقادنا وحبنا » ، فرغبة الطمع هذه التي تصادف عقبات هي السبب في عدد كبير من الاحقاد تصبح حتماً بعامل سنة المخيلة التي تحملنا نحب الشيء الذي يحبه أمثالنا ، ولكن الحقد الذي ازداد « بتأثير حقد متبادل » فيمكن « استئصاله بواسطة الحب » . وإلا كما يقول سبينوزا « فان الحقد الذي ذلله الحب تماماً يتحول الى حب ، فلهذا السبب يصير الحب أعظم مما يكون عليه لو لم يتقدمه الحقد » .

هكذا نرى كيف يدور دولاب العواطف الضعيفة التي تفرض الاستعباد عند الرجل . إن سبينوزا إذ يتغلغل منقباً في الطبيعة البشرية بدقة ومهارة نادرة ، يكشف عن خبيئة النفس ، وهي الكائن النهائي الذي يوجد تحت رحمة اللانهائي وتحت سلطة تفوق الطبيعة البشرية ، وتحت رحمة النزعات ، إذا صح هذا القول ، الذاتية في الطبيعة ، تعبث أعاصير الاهواء » فيكره ما كان يحب ، ويحب ما كان يكره ، تحت تأثير المعلولات الخارجية » . وبالاجمال فان عواطف هذا الكائن النهائي محدودة وخاضعة لسير الطبيعة العام .

٤ ـ الحياة الابدية

ان الرجل مع ذلك ينجو ، الى حدٍّ ما ، من الضغط أو من تقييد الاختيار الصارم من جانب الآلهة « الطبيعة » . ان له أفكاراً ثابتة لا تتغير ، وإذ ذاك فهو يستطيع أن يعمل وألاّ يكون عبداً لشهوته ، وأن يسلك الطريق الوعرة التي تؤدي الى قمة السعادة ، وإلى المناعة الداخلية ، والى معرفة الله معرفة دقيقة ، والى الفضيلة . هنا يفيض علينا سبينوزا من رحيق الحياة ويشركنا في الحب العظيم وأسرار الكمال والنور . ان تأملات هذا المفكر العبقري ، الذي طالما سهر الليالي وتألم بهدوء وبدون علم أصدقائه والمعجبين به ، تتجلى في عظمتها وغنى مواردها ، كالسحر في الفن ، عندما يطرق في النهاية الحديث عن الجزء الخاص بالخلود حيث يتضح جليًّا أنه يحاول جهده ليشركنا مع الكائن الاسمى ، وان يلقننا التصوُّف ، والروحانية البحتة التي يقوم عليها مؤلفه « حب الله » .

فلننظر كيف يدرك الرجل تلك السعادة . يجب أن يكون « هذا الشيء المفكر » كما يقول باسكال ، حرًّا ، وبعبارة أصح ، أن يكون دليله العقل بحسب المعنى الاسبينوزي ، أعني ثابتاً لا يتغير . إن سبينوزا يقول لنا إن الرجل الحر الذي يتبع ارشاد العقل « لا يعمل للخديعة تاتاً ولكنه يعمل دائماً بحسن نية » . ويضيف إلى ذلك قوله إن الرجل الحر « الذي يقوده العقل هو أكثر حرية في المدينة التي يعيش فيها طبقاً للناموس المشترك منه في العزلة حيث لا يخضع إلاّ لنفسه » . إن الرجل الحر عندما يعرف نفسه ويعرف « عواطفه بوضوح وجلاء » فإنه يحب الله ، ويزداد هذا الحب بقدر ازدياد معرفته لنفسه ومعرفته لعواطفه » إن « هذا الحب لله يجب أن يحل في أكبر مكان من النفس » . ولكن ليس لله « شهوات وهو لا يشعر بأية عاطفة سرور أو حزن » . وهكذا فإن سبينوزا يبعد كل مظهر من مظاهر التجسد الالهي ويرجع بنا إلى مفهومه الأساسي الذي يتعلق من ناحية ما بعد الطبيعة ، بالفكر وبالمادة و « بما هو في ذاته ومُدرك في ذاته » وإنه لذلك لا يمكنه « الحقد

على الله » فالذي « يحب الله لا يمكن أن يأتي بمجهود ليجعل الله على حبه » . إن الحب نحو الله « لا يمكن أن يفسد لا بعاطفة حسد ولا بعاطفة غيرة وإنه ليزداد نمواً واشتعالاً بقدر ازدياد عدد الرجال المرتبطين بالله بنفس رباط الحب » . فهذا الحب نحو الله « الذي يعتبر بمثابة سرور مصحوب بفكرة الله » ينشأ عن معرفة ثابتة غير متغيرة لعاطفتنا، ويستلزم كمال شخصنا وسلطته، وبعبارة أخرى إنه منحدر من النفس التي - بواسطة الجسم والأشياء التي لها نوع من الأبدية - « لها علم بالله وتعرف بأنها في الله وتدرك نفسها بالله » إن الأبدية هي ماهية الله حيث إنها تشمل الوجود الضروري . في هذه الظروف يكون النوع الثالث من المعرفة ، ذلك النوع الذي يستطيع وحده أن يدفعنا إلى حب الله العقلي ، تابعاً للنفس التي تستلزم الأبدية ماهيتها . في هذه الحالة « يكون حب الله الروحاني ، الذي يتولد من النوع الثالث للمعرفة أبديّاً » . وبعبارة أخرى يكتب سبينوزا :

« إن حب النفس الروحاني لله هو حب الله بعينه وهو ذلك الحب الذي يحب به الله نفسه ليس بصفة كونه لانهائياً ولكن باعتبار أنه يمكن تفسيره بماهية النفس البشرية المعتبرة من الوجهة الأبدية ، أي إن حب النفس الروحاني لله هو جزء من الحب اللانهائي الذي يحب الله به نفسه » .

ويستنتج سبينوزا من ذلك :

« إنه لا يوجد شيء في الطبيعة يتعارض مع ذلك الحب الروحاني ، وبتعبير آخر ، لا يوجد شيء يمكن أن يحطمه . »

وهكذا ، وبفضل ذلك الاعتبار للأشياء من الوجهة الأبدية ، يجتاز سبينوزا جميع العقبات والموانع رويداً رويداً ، ويحل جميع الصعاب ويسير بنا بتقدم محسوس مطرد ، إلى النعيم الدائم ، وهذا النعيم هو في ذاته الفضيلة ، والطمأنينة ، وهو ذلك السرور الذي ينشأ عن مشاهدة نفوذنا وسلطتنا في العمل ، وهي التي « تتألف من حب الله » ، الذي يعتبر النوع الثالث من المعرفة الذي يستلزم الأبدية منبعه »

إن فكرة سبينوزا تتجلى في وقت واحد ، كما أسلفنا ، تحت مظهرين مزدوجين : ميتافيزيقي وأخلاقي . إن القلق الذي يغمر به الأذهان لا يمكن تبديده إلا إذا عرف أصل

الأشياء ومنشأها . ومتى توصل الى ماهية الأبدية وكيفية دورانها ومكانتها ، فما الذي يتبقى للرجل الذي يكون حلقة في تلك الشبكة العظيمة التي تتألف منها الطبيعة ، سوى بضع شرائع حكيمة لا مناص منها لقيادة حياته ؟ ستكون الأخلاق ، وهي متوفرة في طبائع إسرائيل وعاداته ، أسمى ما تتوج به أعمق الدراسات النظرية وأكثرها تجرداً فيما يتعلق بما بعد الطبيعة . إن سبينوزا لا يهمل الوجهة العملية من الحياة اليومية . إنه يحب الحياة وهو الذي كتب :

« إن الرجل الحر لا يفكر في شيء ما وأقل الأشياء التي يفكر فيها
هو الموت ، وحكمته لا تأمل لا في الموت ولكن في الحياة »

وهكذا فإنه يعمل على غرار الذين ، من أبناء جنسه ، قد تأملوا في الحياة وفي حب متبادل بين الرجال . ويقول سبينوزا :

« إن الرجال الأحرار وحدهم هم الذين يعترفون لبعضهم بالجميل » .

تلك هي عظمة وعمق تلك الفلسفة التي يخال أنها تتحدى الزمن بحداثتها المطردة وبحثها بإخلاص عن الحقيقة . إن سبينوزا يقول لنا إن هذا المذهب مفيد للحياة الاجتماعية لأنه يعلم ألا « يحقد المرء على أحد ، ولا يحتقر أحداً ، ولا يسخر من أحد ، ولا يغضب على أحد ، ولا يحسد أحداً . ويعلم أيضاً كل امرىء أن يكون مرتاحاً إلى ما لديه وأن يساعد جاره لا بدافع الشفقة النسائية أو التحيز أو التطير ، ولكن بدافع العقل وحده » . لا يمكن أن يتصور الانسان فكرة أنفع وأرحم من تلك الفكرة فهي تجعل الرجل سعيداً بالتأمل وراحة النفس . إنه لا يستلزم العزلة ، ولكن فضيلة « التقوى » التي ترمي إلى إقصاء المنازعات بفضل تصرف معقول وجلب السلم إلى الرجال . إن الحكيم لا يستنكف الحرص ، والذي « بمعنى ما استطاع على تلافي احسانات » الجهال ، ويتلافى الأخطار ، يصل بتلك الطريقة إلى الهدوء والطمأنينة ، وإلى حياة التأمل الهنيئة السعيدة ، وإلى تلك الغبطة التي تميز حب الله الروحاني .

٥ - حضارة المذهب الاسبينوزي وتأثيره

لقد وقفنا مما تقدّم على الصفات المميزة لتلك الفكرة الدينية التي جمعت في أغراضها الكون بأسره أو الكل. وقد لاحظنا كذلك أن فلسفة سبينوزا ليست غريبة عن شجون الحياة اليومية الكثيرة التي تشغل الانسانية. إنها ترمي، تحت مختلف مظاهرها الميتافيزيقية والأخلاقية والنقدية إلى إيجاد حلول موفقة وارشاد من أزعجهم القلق إلى حد الإضناء، ومن يتألمون في داخلهم وهم صامتون. إن سبينوزا إذ يتوجه بحديثه في مؤلفه الشهير « نبذة في السياسة » إلى عطف « القارىء الفيلسوف » لا يخشى أن يحطم من أساسها العقائد التي لا تتفق مع النور الطبيعي، ولا مع ذكاء الأحياء الوقاد. إن التطير هو الذي يصعب استئصاله من نفوس الدهماء. ولقد كان هذا التطير السبب الأوحد « في كثير من الاضطرابات والحروب الطاحنة ». وكان سبينوزا لا يتردّد في نقد الكتب المقدسة نقداً شديداً عند ما يتناولها بالفحص الدقيق وحرية الرأي والتفكير بغير ما تحيز أو تحايل. وهكذا كان يبدّد كثيراً من الأغلاط والأخطاء. « ليس للمعرفة الملهمة غاية غير الطاعة ». ثم إنه يشهر بالجشع السافل والطامع عند من يدّعون نشر الايمان بالله وهو يقول:

« لقد رأيت مراراً عديدة، رجالاً يفاخرون بتعاليم الدين المسيحي، أي تبادل الحب والاخلاص بين الجميع، رأيتهم وهم يتنازعون فيما بينهم، ويتناحرون بحدة وضغينة متناهية، ولا يخفون عن بعضهم أمارات الحقد والضغينة، بحيث كان إيمانهم يتمثل من هذه العواطف أكثر من تلك ».

إن الغبطة الحقيقية، ليست من حظ البعض دون البعض الآخر وهي كينبوع لا تستثني أحداً. « وإذن فمن يُسر من ضرر الغير فهو حسود لئيم لا يعرف الحكمة ولا السكينة في الحياة الحقيقية ».

تؤثر في عالم الروح وفي عالم المادة ، يدعونا سبينوزا إلى إمعان النظر في نفوسنا وفي كل شيء من الوجهة الأزلية . وإنه بذلك يبددما يقلقنا من شكوك إذ يجعلنا نشعر بأننا نكوّن وحدة مع الكائن السرمدي اللانهائي .

فلنجتهد في أن ندرس عن كثب جمال تلك الفكرة وغناها في مختلف أدوارها وأطوارها .

١ — طبيعة المعرفة

ان سبينوزا ، بما عرف عنه من شدة الاهتمام بصحة ما يؤكده من الحقيقة والبحث عن الحقيقة ، يشرح بفراسة لا تني الانفعال ، سلسلة مبادىء ، لم تتم ، مع الأسف ، عن تنظيم الادراك العقلي . وان الانسان ليرى فيها ، كما يرى في جميع كتاباته وفي جميع نظرياته ، روح الفنان ، روح سبينوزا تتلألأ وتتجلى في اتحاد غرضين متباينين تمام التباين : فمن جهة ، العالم بما بعد الطبيعة الذي يقدر ، في كل ما يعالجه ، منبت الأشياء وقيمتها الأصلية والكائن في جميع عظمته وسلطانه، ومن أخرى ، المهذبُ الاخلاقي الذي يراعي دائماً الحرية والسعادة والغاية والحياة الداخلية السعيدة .

وهكذا فإن فيلسوف لاهاي ، قبل أن يشركنا في المنهج الذي لابد من وجوده لتقدير الأمور على وجهها الصحيح ، يعترف لنا بتواضع بمقدار ما لقيه من عناء وتفكير ليتوصل إلى اكتشاف هدوء النفس وحالتها الطبيعية . ولقد كتب :

« لقد علمني الاختبار أن أغلب المصادفات التي تقع في الحياة العادية وهمية باطلة »
« ولقد كنت أرى انه لا يوجد بين الاشياء ، التي كانت لي سبباً أو مادة للخوف ، »
« شيء واحد يتضمن في ذاته خيراً أو شراً إن لم يكن بنسبة التأثير الذي يثيره في »
« الروح . ولقد اعتزمت في النهاية أن أبحث عما إذا كانت هناك مادة يصح اعتبارها »
« خيراً حقيقياً يصل تبادله وتستطيع النفس أن تتأثر بواسطته بعد أن تزهد في كل »
« شيء آخر : خيراً تكون ثمرة اكتشافه أبدية والاستمتاع به أبدية من السرور »
« المستمر السامي ، قلت بأني قد اعتزمت في النهاية : حقاً لقد كان يخال لأول وهلة »

لقد كان تأثيره عظيماً على علم ما بعد الطبيعة في ألمانيا . وهذا التأثير تجلى بشكل قاطع في مذهب ليبنيتز . وقد تأثر كذلك المفكرون في بلاد أوربية أخرى بالاسبينوزية سواء في عالم السياسة، أو في عالم الدين، أو في علم ما وراء الطبيعة والأخلاق وعلم النفس، بل وفي ثقافة العلم البحت .

ولقد صاح رينان بعبارات مؤثرة عند الاحتفال بإقامة تمثال سبينوزا : الويل لمن يمر ويوجه اللعنة الى هذا الوجه الرقيق المفكر ! سوف يهدي الجميع من فوق تلك المنصة إلى طريق السعادة التي اكتشفها . وسيأتي يوم بعد مرور أجيال يقول الرجل الذي يمر به إلى نفسه : « هنا رؤي الله عن كثب » .

ليس مظهر الطبيعة العظيمة التي ترمي إلى اللانهائي والأبدي هو المظهر الكامن في سبينوزا، وإنما الذي يكمن فيه بوجه خاص، كما أسلفنا في بدء هذه الدراسة، هو الحب الذي يستلزم الرحمة والشفقة، ويتطلب الحنان والحياة السعيدة .

برامج المقتطف الشهرية

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث مثبت للالوهية ناف لما يدعيه بعض الماديين

من ان في المادية الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

الفريد ده موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

الازهر بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية

والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور

علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

مع مقتطف ابريل سنة ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل —

تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده

يظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

اطلبها مع مقتطف مايو وثمن النسخة ١٠ قروش

موسكو — برلين — لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم حسام الدين حفني ناصف — يظهر مع مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام — الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء — الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرق الاردن — عمان — الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين — الاستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا — الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي واولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا — نقولا افندي حريمي داغر — صيدلية الهلال

في حماه — السيد طاهر افندي الدباني

في الارجنتين

Mr. N. J. Nazar
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا

Mr. Naguib Shehadi
9012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

سنة

١٢ في القطر المصري والسودان

١٤ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن والعراق «بريد عادة»

دولارات لامبركا الشمالية

دولارات لامبركا الجنوبية وجمهورية الارجنتين

في سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يأتون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تصحبها لهم]

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف مائتة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الادبية

ق		ق	
٤٠	الفتح مستمر للاستاذ فؤاد صروف	٣٠	تراث مصر القديمة
٥٠	معجم الحيوان : للفريق الدكتور امين باشا المعلوف	٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
٣٥	فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف	١٥	رواية اميرة انكلترا
٣٥	مختارات المقتطف	٣٥	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٤٠	الرواد : للمقتطف	٢٠	صقر قريش : للاستاذ علي أدهم
٣٠	مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة	٢٠	معجم الاعلام : جزء أول
٤٠	رواد الشرق العربي	٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور شهبندر
٢٠	الصناعات والصناع	٤٠	موكب الحياة ٣٨ قصة عالمية
٢٠	خيوط الغمام : ديوان شعر	٤٠	المنتخبات الجزء الثاني : للطفي السيد باشا

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي